تأملات في سفر المزامير

مواعظ تفسيرية

الدكتور القس منيس عبد النور

هذا الكتاب

انشغلتُ بالوعظ التفسيري من سفر المزامير منذ سنوات طويلة، وبدأته عام 1983، فكنتُ ألقي من منبر الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة عظة تفسيرية لنحو عشرة مزامير كل سنة، سُجِّلت كلها على أشرطة كاسيت، وسُجِّل معظمها على أشرطة فيديو. وقد تلقّاها المؤمنون الذين يعرفون اللغة العربية في مختلف بلاد العالم بقبول طيب، شجَّعني كثيراً. ثم نشرتُ ملخّصاً لمزامير 1–71 في مجلة «أجنحة النسور» القاهرية، وقدَّمتُ الكثير منها في سلسلة أحاديث بالراديو، وبالتلفزيون، من محطات عالمية متنوِّعة.

وطلب مني الشيخ المهندس نبيل اسكندر أن أنشر هذه المواعظ في كتاب، كما طلبت مني دار نشر «نداء الرجاء» بألمانيا أن أنقلها إلى اللغة الإنكليزية، لفائدة قراء هذه اللغة، ولتسهيل ترجمتها منها إلى لغات أخرى.. فكان لا بد من تفريغها من أشرطة التسجيل، وكتابتها على الكمبيوتر. ثم الاستعانة بالمذكرات المختصرة المحتوية على أقسام المزمور، والتي كنت آخذها معي إلى المنبر وقت الوعظ، وبها معلومات قد لا تتَّضح للمستمع أثناء الوعظ (مثل أقسام المزمور)، كما أن بها معلومات لم يسمح الوقت المخصَّص للوعظ بإلقائها.. فأضفتُ ما جاء بها إلى ما كنت أُلقيه أثناء الوعظ. ثم بدأتُ تعديل الأسلوب الوعظي إلى أسلوب كتابي، لأن الأسلوب المقروء يختلف عن الأسلوب المسموع.. وهذه هي الطريقة نفسها التي اتَّبعتُها عندما أعانني الرب على إصدار بعض كتبي، مثل «معجزات المسيح» و«المحبة لا تسقط أبداً» و«ثمر الروح» و«أمثال المسيح» والتي تُرجمت جميعها إلى الإنكليزية.

وقد منحني الرب عوناً من أشخاص عديدين ساعدوني في هذا العمل، ولولا معونتهم ما تمكنتُ من إصدار هذا الكتاب في هذه الصورة. وأود أن أسجل شكري القلبي لهذه المجموعة الرائعة التي عملت معي بكل قلبها، وصرفَت الشهور الطويلة في تفريغ العظات من الأشرطة، وكتابتها بالكمبيوتر، وذلك قبل أن أحوِّلها من أسلوب الوعظ المسموع إلى أسلوب الكتابة المقروء.. ثم قيامهم بمراجعة البروفات، وتقديم التعليقات، وعمل التنسيق الطباعي للمخطوطة لتظهر كما هي بين أيديكم. لهم جميعاً شكري القلبي وتقديري العميق، ولهم أطلب مكافأة السماء.

وصلاتي أن يكون هذا الكتاب سبب بركة لكل قارئ، يرشد حياتنا جميعاً لتكون كلمة الله سراجاً لأرجلنا ونوراً لسبيلنا، وواقعاً مُعاشاً، لخيرنا الروحي، ولخير من نخدمهم.

د. القس منيس عبد النور

مقدمة

المزامير تسابيحٌ لله. ونلتقي في سفر الخروج 15 بأول مزمور تسبيح لموسى احتفاءً بالخلاص من عبودية فرعون، فأخذت مريم النبيَّة الدفَّ، وتبعها رجال ونساء بني إسرائيل يرنمون: «رنموا للرب فإنه قد تعظم! الفرس وراكبه طرحهما في البحر» (خر 15 :20، 21). ثم نقرأ ترنيمة النبية دبورة في سفر القضاة 5، وبعدها ترنيمة حنة أم النبي صموئيل (1صم 2). ثم نقرأ رثاء داود للملك شاول (2صم 1). أما القسم الأعظم من المزامير فهو في سفر المزامير (وفي العبرية: تهلّيم، ومعناه: تسبيحة). ويبدأ السفر بتطويب الإنسان الذي باركه الله، وينتهي بالتهليل لتمجيد الله الذي بارك الإنسان. والمزامير أناشيد حمدٍ وسجود وتمجيد لله، كانت تُرتَّل بمصاحبة العزف على الآلات الموسيقية. وهي عامرة بالأمل في صلاح الله ومحبته وحكمته وقدرته وقداسته وأمانته. إنه الإله اللامحدود البار الصالح. ويتحدث المرنِّمون عن الله أكثر من حديثهم عن أنفسهم أو عن البشر، لأنهم يدركون أنه قريبٌ منهم، وأنه إله الخلاص والإنقاذ من الظلم والاضطهاد، وهو معين البائسين والمظلومين والمهمَّشين الذين لا يجدون من يهتم بهم، وهو الفاعل في الطبيعة وفي البشر وفي التاريخ. وهو سامع الصارخين المستغيثين والمحبين المتعبِّدين، ويستجيب دعاءهم. وهو غافر الخطايا ومطهِّر القلوب. وحسناً قال مارتن لوثر: «في المزامير نمعن النظر في قلوب كل القديسين».

ويسبِّح المرنمون الله لأنه ينقذ الفرد كما ينقذ الأمة، فهو إله الفرد، وإله العائلة، وإله الشعب كله. إنه المخلِّص والمنقذ من الضيق والحرب والجوع والخطية.

كُتّاب المزامير:

أوحى الله بالروح القدس إلى مجموعة من أنبيائه بكتابة المزامير، لا نفرِّق بين أحدٍ منهم. وقد أُطلق على سفر المزامير اسم «مزامير النبي داود» لأننا من دراسة عناوين سفر المزامير نكتشف أنه كتب 73 مزموراً، فسُمِّي السفر باسمه من باب التغليب. ويتَّضح من العهد القديم أن داود كتب مزموري 96 و105 (راجع 1أي 16 :23–26 و1أي 16 :7–22)، ويعزو العهد الجديد إليه أيضاً أنه كتب مزمور 2 (أع 4 :25) ومزمور 95 (عب 4 :7). وكتب آساف 12 مزموراً، وأولاد قورح 10 مزامير، وسليمان مزموري 72 و127، وهيمان مزمور 88، وإيثان مزمور 89، وموسى مزمور 90. وهناك 49 مزموراً لا نعرف من كتبها.

وقد جمع النبي عزرا هذه المزامير بإرشاد الروح القدس في كتاب واحد.

أقسام سفر المزامير:

قسَّم اليهود المزامير إلى خمسة كتب، يتوافق كل كتاب منها مع واحد من أسفار موسى الخمسة، وينتهي كل كتاب منها بتمجيد ختامي:

الكتاب الأول من مزمور 1–41 وهو يتناسق مع سفر التكوين، الذي يتحدث عن سموّ الإنسان، وعن سقوطه.

والكتاب الثاني من مزمور 42–72 وهو يتناسق مع سفر الخروج، الذي يركِّز على الأمة كمركز للسفر.

والكتاب الثالث من مزمور 73–89 ويتناسق مع سفر اللاويين الذي يتحدث عن المقدس.

والكتاب الرابع من مزمور 90 – 106 ويتناسق مع سفر العدد الذي يتحدث عن الأرض المقدسة.

والكتاب الخامس من مزمور 107–150 ويتناسق مع سفر التثنية الذي ينبِّر على كلمة الله.

مزامير لمناسبات خاصة:

هناك سبعة مزامير توبة، وهي: 6 و32 و38 و51 و102 و130 و143.

وهناك سبعة مزامير لداود الطريد أمام شاول، وهي: 7 و34 و52 و54 و56 و57 و142.

وهناك سبعة مزامير لتسبيح الله الملك، وهي: 93 و95–100.

وهناك ستة مزامير «التهاليل المصرية»، وهي: 113–118.

وهناك 15 مزموراً للمصاعد، وهي: 120–134.

وهناك ستة مزامير تهليل ختامية، وهي: 145–150.

مزامير طلب الانتقام:

نجد في الكثير من المزامير صلوات طلب انتقام، ولعل أهمها مزامير 35 و69 و109 و137. وهي تتفق مع روح شريعة موسى التي نادت أن العين بالعين والسن بالسن (لا 24 :19)، ولكنها تتعارض مع روح تعاليم المسيح التي تنادي بالغفران للأعداء والصلاة من أجل المسيئين (مت 5 :43–48). وقد عاش المرنمون في عهد الشريعة الموسوية، فرفعوا صلواتهم لله بضمائر صالحة بغير انفعال ولا تهوُّرٍ عاطفي، لأنهم كرهوا الخطية، وبالتالي كرهوا الخاطئ الذي يرتكبها.

وقد طالب المرنم تسليم الخطاة للرب لينفِّذ فيهم عدالتــه (مــز 137 :8 و9) فيــرى الصــدّيقون ويخافون (مز 52 :6). وكان اليهود يقولون إن السماء تفرح بخاطئ واحد يهلك لتســتريح الأرض من شرِّه، بينما علَّمنا المسيح أن السماء تفرح بخاطئ واحد يتــوب (لــو 15 :7 و10) فتســتريح الأرض من شره بتوبته، وليس بهلاكه.ولكن بعض المفسرين يرون أن المرنم كان يتحــدث عــن السبب والنتيجة، فالخاطئ لا بد أن ينال أجرة خطيته. وعلى هذا فاللعنات نبــوّات عمّــا ســيحلُّ بالخاطئ. فيكون طلب الانتقام صلواتٍ مرفوعةً للإله العادل الذي لا بد ينصف المظلــوم ويعاقــب الظالم.

عدد المزامير:

عدد المزامير 150 مزموراً كما جاء في التوراة العبرية. وفي منتصف القــرن الثــاني قبــل المسيح تُرجمت المزامير إلى اللغة اليونانية لخدمة اليهود الذين تشتَّتوا في أرجاء العالم المعــروف وقتها، وهي الترجمة المعروفة باسم «السبعينية» والتي عنها أخذ القديس إيرونيمــوس (جيــروم) ترجمته إلى اللاتينية، والمعروفة بـــ «الفولجاتا». وقد أدمجت «السبعينية» مزموري 9 و10 فــي مزمور واحد، كما أدمجت 114 و115 في مزمور واحد. وقسمت كلاًّ من مزمــوري 116 و147 إلى مزمورين، فبقي عدد المزامير 150 مزموراً.

واحتوت الترجمة السبعينية على مزمور إضافي هو مزمور 151، ولــه أصــل عبــري فــي المخطوطات التي اكتُشفت في الكهف الثاني من كهوف وادي قمران (ونُشرت في 1965–1967). إلا أن النص اليوناني يذكر أن مزمور 151 هو «خارج العدد». وواضــحٌ أن الاختلافــات فــي الترجمة السبعينية عنها في الأصل العبري لا يؤثر على مضمون المزامير، ولكنــه يــؤثر علــى «الترقيم» الذي أخذت عنه الفولجاتا وباقي الترجمات التي نُقلت عن الفولجاتا.

عناوين المزامير:

هناك 34 مزموراً بدون عناوين، أما بقية المزامير (وعددها 116 مزموراً) فتحمل عناوين، منها 32 مزموراً تذكر مناسبة كتابة المزمور (هي 3 و7 و18 و30 و34 و51 و52 و54 و56 و57 و59 و60 و63 و90 و92 و102 و120–134 و142).. وهناك 12 مزموراً تذكر اسم اللحن الذي يُرتَّل به المزمور.. وهناك 16 مزموراً تذكر اسم الآلة الموسيقية التي تصاحب ترنيم المزمور.. وهناك مئة مزمور تحمل اسم الكاتب، منها 73 مزموراً لداود (هي 3–9 و11–32 و34–41 و51–65 و68–70 و86 و101 و103 و108–110 و122 و124 و131 و133 و138–145)، و12 مزموراً لآساف (هي 50 و73–83)، و10 مزامير

لبني قورح (هي 42 و44–49 و84 و85 و87)، ومزموران لسليمان (هما 72 و127)، ومزمور واحد لكل من هَيْمان الأزراحي (هو مز 88) وأَيْثان الأزراحي (هو مز 89) وموسى (هو مز 90). ويقول المفسرون إن عنونة المزمور بالقول «لداود» لا يعني بالضرورة أن داود هو الكاتب، لأن التعبير «لداود» أو «لسليمان» أو «لإمام المغنين» له ثلاثة معانٍ: أولها أن الكاتب هو داود (وهو الأغلب)، وثانيها: أن المزمور مُهدَى لداود، وثالثها: أنه يختص بحالةٍ مرَّ بها داود.

معاني بعض كلمات وتعبيرات متكررة في المزامير:

سلاه: هذا تعبير موسيقي ورد 71 مرة في 39 مزموراً، لا نعرف معناه بالضبط. ويقول بعض المفسرين إنه يعني تقوية اللحن وتوقيعه بشِدَّة، فيتوقف المرنمون عن الترتيل لتعزف الآلة الموسيقية وحدها. ويقول آخرون إن معناه وقفة موسيقية، فتتوقَّف الآلات الموسيقية والمرتلون، ليتأملوا معنى ما رتَّلوه. ويقول يعقوب (الذي من الرها) إنها تشبه «آمين» بعد الصلاة، ومعناها «استجِب» فيكون معنى «سلاه» «أَعطِ بركتك». (وردت «سلاه» أيضاً ثلاث مرات في نبوة حبقوق).

لإمام المغنين: وردت في عنوان 55 مزموراً، هي 4–6 و8 و9 و11–14 و18–22 و31 و36 و39–42 و44–47 و49 و51–62 و64–70 و75–77 و80 و81 و84 و85 و88 و109 و139 و140. وهناك تفسيرات كثيرة لهذا العنوان، أقربها إلى الصواب أن قائد فرقة ترنيم الهيكل (إمام المغنّين) كان يقود العابدين في ترنيم هذا المزمور بالهيكل. وقد يكون أن أحد الشعراء أهدى المزمور لإمام المغنين، كما جاء عنوان المزمور الرابع «لإمام المغنّين .. مزمور لداود» لأن داود كتب المزمور وأهداه لإمام المغنين.

على القرار: وردت في عنوان مزموري 6 و12. وهي ترجمة لكلمة عبرية معناها «الثامنة» قال بعض المفسرين إنها آلة موسيقية ذات ثمانية أوتار، وقال البعض إنها تشير إلى خفض الصوت في السلَّم الموسيقى، ولو أن البعض قالوا إن السلم الموسيقي لم يكن معروفاً عند بني إسرائيل.

شجوية: وردت عنواناً للمزمور السابع، وهي غالباً من أصل أكادي، وتعني ترنيمة شجوى وحزن. وفي اللغة العربية: شجاه الأمر شجواً، أحزنه. (وردت أيضاً في صيغة الجمع في حبقوق 3 :1).

الجتيَّة: وردت في عنوان مزامير 8 و81 و84. وقد تكون آلة موسيقية اختُرعت أو استُخدمت في العاصمة الفلسطينية «جت» وعرفها منهم بنو إسرائيل. أو قد يكون اسم لحنٍ تُغنَّى بـه أغنيـة قطاف العنب، الذي كان يوافق موعد عيد المظال.

موت الإبن: وردت في عنوان المزمور التاسع. وربما كان اسم لحن حزين وُضع لرثـاء ابـنٍ مات، استُعير ليُرتَّل به المزمور.

ضرب الأوتار: وردت في مزمور 9 :16. وهي توجيه للموسيقيين، قد يعنـي تهدئـة العـزف ليعطي المرنمين فرصة التفكير الهادئ والتأمل في معاني كلمات المزمور.

مذهَّبة: وردت في عنوان مزامير 16 و56–60. وهي تعني «مغطاة برقائق الـذَّهب» أي أن كلمات المزمور لامعة ثمينة كالذهب.

على أيِّلة الصبح: وردت في عنوان مزمور 22. ولا نعرف معناها، والأغلب أنها اسم اللحـن الذي يُرتَّل به المزمور.

قصيدة: وردت في عنوان 13 مزمـوراً هـي 32 و42 و44 و45 و52–55 و74 و78 و88 و89 و142. وهي تعني في الأصل العبري «ما يعطي فطنة وحكمة» وترجمتها السبعينية «مزمورُ فَهْمٍ».

للتذكير: وردت في عنوان مزموري 38 و70. وتعني تذكير المرنم بأحداث مقدسة لا يجب أن ينساها.

على السوسن: وردت في عنوان مزامير 45 و60 و69 و80. والسوسن آلة موسيقية تشبه في شكلها زهـرة السوسـن. وكلمـة «سوسن» قريبـة من كلمـة «ستة» فـي اللغـة العبريـة، وربمـا كانـت آلـة «السوسن» ذات ستة أوتار.

على الجواب: وردت في عنوان مزمور 46. وهو اسم اللحن الذي يُرتَّل به المزمور، ويمكـن ترجمته «لحن العذارى».

على الحمامة البكماء بين الغرباء: وردت في عنوان مزمـور 56. ومعنـاه غيـر معـروف، والأغلب أنه اسم اللحن الذي يُرتَّل به المزمور.

على لا تُهلِك: وردت في عنوان مزامير 57–59 و75. ربما تشير إلى لحنٍ كانت تُرتَّـل بـه صلاة موسى في تثنية 9: 26 «وصلَّيتُ للرب: يا سيد الرب، لا تُهلِك شعبك وميراثك الذي فديتـه بعظمتك». ثم استُخدم اللحن لترتيل هذه المزامير الأربعة.

على يدوثون: وردت في عنوان مزموري 62 و77. ويدوثون اسم عبري معناه «حامد أو مُسبِّح» من سبط لاوي، وأحد الموسيقيين الثلاثة الكبار الذين عيَّنهم الملك داود لقيادة التسبيح في الهيكل (1أي 16 :41–43 و25 :1–3). والأغلب أن يدوثون هو واضع اللحن الذي يُرنَّم به المزمور.

ترنيمة المصاعد: وردت عنواناً لخمسة عشر مزموراً هي مزامير 120–134. كان بنو إسرائيل يرنمونها وهم صاعدون إلى أورشليم للاحتفال بالعيد.

الإنجيل في سفر المزامير:

يحب المسيحيون المزامير كما أحبها اليهود، لأنهم يكتشفون فيها المعاني الروحية والاختبارات الدينية التي يعلنها العهد الجديد، وهم ينتقلون من قراءة الإنجيل إلى قراءة المزامير دون أن يشعروا بأي اختلاف في مستوى الفكر الروحي.

1 - المسيح في المزامير: كان لقب «المسيح» يُطلق على ملوك بني إسرائيل (مز 89 :38 و51) كما كان يشير إلى الابن الأكبر لداود، ملك بني إسرائيل المخلَّص الآتي (مز 2:2). ويصف لقب «المسيح» أيضاً كل من يمسحونه ليتولى منصباً خاصاً، كالأنبياء (مز 105 :15). وهناك نبوّات كثيرة في المزامير عن حياة المسيح، كما قال: «لا بد أن يتمَّ جميع ما هو مكتوب عنّي في ناموس موسى والأنبياء والمزامير» (لو 24 :44)، فقد استشهد بمزمور 8 :3 حين هتف الأولاد له يوم دخوله الانتصاري إلى أورشليم (مت 21 :16)، وعندما كان معلَّقاً على الصليب اتَّجه فكره إلى سفر المزامير، فدعا الآب بأول كلمات مز 22 (مت 26 :46)، واستودع روحه إليه بكلمات مز 31 :5 (لو 23 :46)، وفي عطشه سقوه خلاً كما جاء في مز 69 :21 (يو 19 :29). ويصوِّر مز 22 آلام الصليب. وقد وصفت المزامير المسيح بأنه «ابن الله» الذي يهزم أعداءه (مز 2 و72 و110) ولا بد أن يَهلك كلُّ مقاوميه.. كما تحدثت المزامير عن امتداد ملكوته في كل العالم (مز 47 و67 و96–100 و117). وقد حَوَت مزامير 2 و8 و 16 و22 و40 و45 و69 و72 و89 و102 و109 و110 و118 و132 نبوات واضحة عن حياة المسيح وموته وقيامته.

2 - الأنس بالله في المزامير: يرى المرنم قداسة الله، فيتعبَّد له (كما في مزامير 95–100) ويشتاق إليه ويعطش للوجود في حضرته (كما في مز 42 و43 و63) ويسبحه (كما في مز 33 و34 و40 و92 و105) ويحب بيته (كما في مز 84 و122)، ويحب كلمته (مز 19 و119)، ويختبر حضوره الدائم معه (مز 23 و91).

3 - الخلاص من الخطية: تركز المزامير على أن الإنسان خطّاء، فيقول المرنم: «إن كنتَ تراقب الآثام يا رب، يا سيد، فمن يقف؟» (مز 130 :3) وهو يرى أن الخطية هي أساساً ضد الله «إليك وحدك أخطأتُ والشرَّ قدام عينيك صنعتُ» (مز 51 :4). وتوضح المزامير أن الأمل الوحيد في الخلاص من الخطية وأجرتها يكمن في الفداء، ولا يمكن للإنسان أن يفدي نفسه، ولا يقدر أخٌ أن يفدي أخاه «الأخ لن يفدي الإنسان فداءً، ولا يعطي اللهَ كفارةً عنه. وكريمة هي فدية نفوسهم، فغلقت إلى الدهر (وفي ترجمة دار المشرق: فدية نفوسهم باهظة، وهي للأبد ناقصة)» (مز 49 :7 و8). أما الفدية المقبولة فهي الذبيحة الدموية كما أوضحت شريعة موسى (مز 51 :19) والتي كانت ترمز إلى المسيح حمل الله، الذي يرفع خطية العالم (يو 1 :29). ويقول المرنم: «لأن عندك المغفرة، لكي يُخاف منك» (مز 130 :4) «طوبى لرجلٍ لا يحسب له الرب خطية» (مز 32 :2). ويجد الإنسان خلاصه من خطاياه بالاعتراف والتوبة (مزمور 32 و51) فيتمتع بفرح الخلاص (مز 51 :12).

4 - الحياة الأبدية في المزامير: لم تكن فكرة الحياة الأبدية واضحة في فكر كُتّاب العهد القديم، فإن المسيح هو الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل (2تي 1 :10). ويبدو من بعض آيات المزامير أن تسبيح الله سينتهي بنهاية حياة المرنم على الأرض، فيقول: «ليس في الموت ذكرك. في الهاوية من يحمدك؟» (مز 6 :5). ولكن لا يوجد إنكار للحياة الأبدية، كما قال المرنم: «جسدي أيضاً يسكن مطمئناً، لأنك لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع تقيَّك يرى فساداً» (مز 16 :9 و10). وهو يرى الفرح بوجه الله بعد الموت «أشبع إذا استيقظتُ بشبَهك» (مز 17 :15) ويقول: «برأيك تهديني، وبعدُ إلى مجدٍ تأخذني» (مز 73 :24). ويقول: «إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية، لأنه يأخذني» (مز 49 :15).

* * *

والآن تعالوا نتأمل مزامير الكتابين الأول والثاني (مزامير 1–72) فنسبح الله الذي خلق الإنسان أسمى من كل ما سواه، ولكنه سقط، فأوجد الله له الفداء والخلاص. إننا صاعدون مع أصحاب المزامير إلى مستوى أعلى. فلنطلب أن تكون أقدامنا كالأيائل ويمشّينا على مرتفعاتنا (حب 3: 19).

اَلْمَزْمُورُ الأَوَّلُ

1طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الأَشْرَارِ، وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ، وَفِي مَجْلِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لَمْ يَجْلِسْ. 2لَكِنْ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ مَسَرَّتُهُ، وَفِي نَامُوسِهِ يَلْهَجُ نَهَاراً وَلَيْلاً. 3فَيَكُونُ كَشَجَرَةٍ مَغْرُوسَةٍ عِنْدَ جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ، الَّتِي تُعْطِي ثَمَرَهَا فِي أَوَانِهِ، وَوَرَقُهَا لاَ يَذْبُلُ، وَكُلُّ مَا يَصْنَعُهُ يَنْجَحُ.

4لَيْسَ كَذَلِكَ الأَشْرَارُ، لَكِنَّهُمْ كَالْعُصَافَةِ الَّتِي تُذَرِّيهَا الرِّيحُ. 5لِذَلِكَ لاَ تَقُومُ الأَشْرَارُ فِي الدِّينِ، وَلاَ الْخُطَاةُ فِي جَمَاعَةِ الأَبْرَارِ. 6لأَنَّ الرَّبَّ يَعْلَمُ طَرِيقَ الأَبْرَارِ، أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَتَهْلِكُ.

الناس نوعان

يبدأ مز 1 بكلمة «طوبى» ومعناها: يا لسعادة! وهي ما بدأ به المسيح موعظته على الجبل، فطوَّب المساكين بالروح وغيرهم (مت 5: 3–13). والكلمة في صيغة الجمع، وتعني تعدُّد البركات.

ومن تطويب مز 1 والموعظة على الجبل يتّضح أن السعيد هو الذي يستمدّ سعادته من شيء داخل نفسه، هو وجود النعمة في قلبه، فتنعكس على مسلكه الخارجي، وتكوِّن عنده اكتفاءً ذاتياً. فالسعيد حقاً لا يستمد فرحه من الظروف المحيطة به، ولا من خارج نفسه، بل من داخله. فإن كنا نستمد سعادتنا وسلامنا مما هو خارج نفوسنا، فقد نجد ما يسبِّب لنا الفرح والسلام يوماً، ولا نجده بذات الكمية والنوعية في يومٍ تال، وقد يجيء يومٌ لا نجده فيه أبداً. فالذي يتكل على الظروف لتسعده يرتفع تارةً وينخفض أخرى. وتكون انخفاضاته أكثر من ارتفاعاته كمّاً ونوعاً. أما الذي يستمد سعادته مما بداخل نفسه، فهو السعيد حقاً. ونرى في الرسول بولس نموذجاً لهذا، إذ قال: «تعلَّمتُ أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن أتَّضع وأعرف أيضاً أن أستفضل. في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدرَّبتُ أن أشبع وأن أجوع، وأن أستفضل وأن أنقُص. أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في 4: 11–13).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – الإنسان البار (آيات 1–3)

ثانياً – الإنسان الشرير (آيتا 4، 5)

ثالثاً – سبب النجاح وسبب الفشل (آية 6)

أولاً - الإنسان البار

(آيات 1-3)

هنا ثلاث صور للإنسان البار: صورة سلبية، وأخرى إيجابية، وثالثة وصفيَّة:

1 - صورة سلبية: «طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس» (آية 1). والمشورة هي تقديم النصيحة لتوجيه شخصٍ ليعتنق فكراً معيناً، أو ليؤدي عملاً معيناً. والسعيد هو الذي لم يتّجه في حياته إلى فكر الأشرار، فلم يقف في طريق الخطاة، ونتيجة لذلك لم يجلس في مجلس المستهزئين، لأن فكر الأشرار يقود إلى وقفة، والوقفة تؤدي إلى الجلوس. والتعيس هو الذي يسلك في مشورة الأشرار وفكرهم، فيجد نفسه واقفاً في طريق الخطاة، وينتهي به الأمر إلى الجلوس في مجلس المستهزئين. ثلاث خطوات تؤدي كلٌّ منها إلى الخطوة التالية، وتنتهي بانحدار كامل.

تبدأ الخطية بفكر بسيط، وتنتهي بالانهيار. ويرجع هذا إلى مكر إبليس، فلو جرَّبنا في البداية أن نخطئ خطية كبيرة تجعلنا ننهار انهياراً أخلاقياً كاملاً، فإننا سنرفضها. لكنه بخداعه يعرض علينا مجرد فكرة تبدو صالحة، ويلعب دور الناصح المخْلِص الذي يهتم بمصلحتنا. وقد ظهر مكره هذا في تقديم مشورته لأمّنا حواء في صورة تساؤل يبدو بريئاً، وقدَّم اقتراحاً ونصيحة: «أحقاً قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة؟.. لن تموتا»! فاستهوت المشورة والفكرة أبوينا الأوَّلين، ووقفا أمام الشجرة الممنوعة وقفة تأمل، فوجدا «الشجرة بهِجَة للعيون وشهية للنظر». وقادتهما الوقفة إلى الجلوس والأكل من الشجرة الممنوعة (تك 3: 1-7). فإن قبلنا مشورة إبليس يتبلور ما قبلناه إلى وقفة تأمل، وينتهي بنا الأمر إلى اعتناق هذا الفكر وتنفيذه في جلسةٍ مع المستهزئين.

وكما أن السلوك يؤدي إلى الوقوف وينتهي بالجلوس، فيجيء الانحدار تدريجياً، هكذا التعامل مع فكر «الأشرار» يؤدي بنا إلى طريق «الخطاة» الذي ينتهي بمجلس «المستهزئين». والأشرار هم المتسيِّبون الذين لا تحكمهم القوانين الروحية. قد يستجيبون للروحيات، ولكن عندما لا تتفق مع أهوائهم وراحتهم الجسدية يرفضونها. والشرير هو غير المستقر، الذي لا يبقى على حال واحدة. إنه غير متوافق مع نفسه، لأنه متذبذب متقلقل. سعيد هو الإنسان الذي لا يقف ليتلقّى نصيحةً من الشرير المتسيّب، غير المستقر، الذي ينتقل من فكر لا أخلاقي إلى فكر لا أخلاقي آخر. أما «الخطاة» فهم الذين أخطأوا الهدف، فلم يستطيعوا أن يحققوا قصد الله في حياتهم. وهم أشرُّ حالاً من الأشرار.

أما «المستهزئون» فهم نوع أكثر شراً من الأشرار، وأكثر خطية من الخطاة. إنهم الذين لا يفعلون شيئاً إلا السخرية من الدِّين والمتديّنين. هم الذين يضحكون على الذين يتعبّدون. وقد تكون مكانة المستهزئ عالية، لأنه يجتذب الناس إليه فيلتفُّون حوله ضاحكين. لكنه قريب من أبواب الجحيم، ولا بد يهلك.

هذا هو الوصف السلبي للإنسان البار الذي لم يرتكب أياً من هذه الأخطاء الثلاثة.

2 - صورة إيجابية: «لكن في ناموس الرب مسرَّته، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً» (آية 2). هنا نجد تصويراً لعواطف الإنسان السعيد: «في شريعة الرب مسرَّته». إنه يحب كلام الله. مسرَّته بالشريعة تغنيه عن التلذُّذ بمشورة الأشرار.

ونجد تصويراً لعقليَّته: إنه يلهج في كلمة الله نهاراً وليلاً، فيتأملها بشغف. وكلمة «يلهج» في اللغة العبرية تعني «الاجترار». فالجَمَل مثلاً يأكل ويزدرد بسرعة، وبعد ذلك يجترّ ما أكله على مهلٍ، مستمتعاً بما سبق وأكله على عَجَل! والمؤمن يلتهم كلمة الله بسرعة، مسروراً بها، ثم يجلس بعد ذلك ليلهج فيها، فيستعيدها في عقله وقلبه ويتأملها. يفكر فيها أكثر ليحلِّل معانيها، ويعمل على تطبيق ما رآه فيها على حياته اليومية. إنه يبذل جهداً عقلياً في أن يعرف معاني هذه الكلمات المقدسة، مثل مؤمني بيرية الذين وُصِفوا بأنهم «أشرف من الذين في تسالونيكي، فقبلوا الكلمة بكل نشاط، فاحصين الكتب كل يوم» (أع 17: 11).

ومسرَّة البار بكلمة الرب تحميه من الجلوس في مجلس المستهزئين، لأنها تغنيه عن مجلسهم. إنه يفتش فيها ليعرف مشيئة الله الصالحة، فتسكن فيه الكلمة بغنى، فيسلك بالتقوى مبتعداً عن الشر. طوبى للذي لم يجلس مع المستهزئين، لا لأنه يُبعِد نفسه بالقوة عنهم، لكن لأنه يشبَع بكلمة الله، فتعطيه الاكتفاء الداخلي.

والمؤمنون لا يهربون من الخطية خوفاً من عقابٍ يحل بهم، لكن لأن الرب يُشبع قلوبهم. إنهم ليسوا محرومين، لكنهم شبعانون. وكلما شبعوا لهجوا في كلمة الله نهاراً وليلاً، فيجدون سعادة نفوسهم: سلباً، بأن يبتعدوا عن الفكر الشرير، الذي يؤدي إلى وقفة مع الخطأ، وينتهي بجلسة مع المستهزئين. وفي الوقت نفسه يفرحون لأنهم في ناموس الرب يُسرُّون ويلهجون نهاراً وليلاً. «بِمَ يزكّي الشاب طريقه؟ بحفظه إياه حسب كلامك. خبأتُ كلامك.. في قلبي لكيلا أخطئ إليك» (مز 119: 9، 11).

3 - صورة وصفية: نتيجةً للمواقف السلبية مع الخطية، وللموقف الإيجابي مع كلمة الله، يصير المؤمن: (أ) شجرة مرتوية: «كشجرة مغروسة عند مجاري المياه» (آية 3أ). لم يغرس نفسه، لكن

نعمة الله هي التي غرسته. «مباركٌ الرجل الذي يتكل على الرب وكان الرب مُتَّكله، فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياهٍ، وعلى نهرٍ تمدُّ أصولها، ولا ترى إذا جاء الحر، ويكون ورقها أخضر، وفي سنة القحط لا تخاف، ولا تكفّ عن الإثمار» (إر 17: 7، 8). وليس المؤمن مغروساً على نهر واحد، لكن على أنهار كثيرة، كلها مياه حية جارية تتجدَّد كل يوم، فيرتوي دائماً من «نهر سواقيه تفرّح مدينة الله» (مز 46: 4).

* يرتوي من نهر الغفران الذي يغسله، فيقول: «اغسِلني فأبيضّ أكثر من الثلج.. قلباً نقياً اخلُق فيّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدد في داخلي» (مز 51: 7، 10).

* ويرتوي من نهر الروح القدس، كما قال المسيح: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي كَمَا قَالَ الْكِتَابُ تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». قَالَ هَذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ» (يوحنا 7: 37-39).

* ويرتوي من نهر مواعيد الله في كل ظرف مؤلم أو مفرح، فيشجعه الله بكلمته الصادقة ووعوده الأمينة، ويسمعه يهمس له: «ثِق. أنا هو. لا تخف». مواعيد الله تبدد الخوف وتسدد الأعواز وترشد في الحيرة.

* ويرتوي من نهر الأُنس بالله. يتلذذ بإلهه ويفرح بصلاحه ويرتوي بحبه.

(ب) شجرة مثمرة: «تعطي ثمرها في أوانه» (آية 3ب). إنه كشجرة تثمر دوماً في موسمها، وأوراقها دائمة الاخضرار. ولكن لماذا ذكر المرنم الثمر أولاً والورق ثانياً، بينما تورق الشجرة أولاً وتحمل الثمر ثانياً؟.. لعله كان يفكر في شخصية كاملة كشخصية المسيح، الذي قيل عنه: «جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلِّم به» (أع 1:1). يفعله أولاً، ويعلّم به ثانياً. وهذا يعني أن ثمر المسيح جاء قبل ورقه، وفِعله قبل قوله «يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب» (لو 24: 19). الفعل أولاً والقول ثانياً.

المؤمن الثابت المغروس عند المياه الجارية يهتم بالثمر أولاً والورق ثانياً. ولا يمكن أن نأتي بثمر دون أن يكون لنا ورق، فالمؤمن فعلاً جميل في داخله وخارجه. جميل في فعله وقوله. جميل في كل شيء، لأن الله «يجمِّل الودعاء بالخلاص» (مز 149: 4).

(ج) شجرة خضراء الورق: «وورقها لا يذبل» (آية 3ج). المؤمن دائم الخضرة، لا تدمِّره برودة الشتاء، ولا يُسقط جليد الحياة أوراقه. إنه «كالنخلة يزهو. كالأرز في لبنان ينمو. مغروسين في بيت الرب، في ديار إلهنا يزهرون. أيضاً يثمرون في الشَّيبة. يكونون دِساماً وخُضراً» (مز 92: 12-14). شعاره: «جعلتُ الرب أمامي في كل حين. لأنه عن يميني فلا أتزعزع.. إن نزل عليَّ

جيشٌ لا يخاف قلبي. إن قامت عليَّ حربٌ ففي ذلك أنا مطمئن.. ثابتٌ قلبي يا الله، ثابتٌ قلبي» (مز 16: 8 و27: 3 و57: 7).

وقد تبدو أعمال المؤمن الحقيقي بسيطة كورق الشجر، لكنها تسبِّب بركة. أقل ما تفعله أنها تظلل على المحيطين به في المكان الحار المُحرق. فما أسعد المؤمن الذي تقصده لتتحدث إليه وأنت متعَب، فتخرج من عنده وأنت مستريح، لأنه يقدر أن يقول: «أعطاني السيد الرب لسان المتعلمين لأعرف أن أُغيث المعيي بكلمة» (إش 50: 4). فلنكن كشجرة زاهية لأنها مزروعة عند أنهار مياه جارية، نعطي ثمرنا دائماً في أوانه. لا يقصدنا أحد يطلب منا ثمراً إلا ويجد، فتشبع نفسه بما أعطانا الله من بركته ومن نعمته. وليكن «ورق الشجرة لشفاء الأمم» (رؤ 22: 2). كونوا شفاءً للمحيطين بكم، وظلاً للحيارى والمتعَبين الباحثين عن ملجأ.

(د) إنسان ناجح: «كل ما يصنعه ينجح» (آية 3د). وهذا يلخِّص حياة المؤمن، فالرب يُنجِح طريق الصدِّيق إذ يحوِّل متاعبه وأشواك حياته إلى ورود تسُرّ الناظرين. حتى ما يفشل فيه، يؤدي إلى شيءٍ جميل. أبسط كلمة ينطق بها تَثبُت إلى الأبد، وأصغر أعمال المحبة التي يؤديها تكون لذِكرٍ أبدي، فيبقى ثمره كما يبقى ورقه أيضاً! لا يفقد جماله ولا ثمره، لأن إلهنا في محبته يحوّل أخطاءه إلى دروس يتعلم منها. فعندما يخطئ يسرع إلى أبيه السماوي معترفاً، فيُطمئنه ويُحسِن إليه، ويُخرج من الآكل أكلاً ومن الجافي حلاوة (قض 14:14).

هناك بركات مختفية داخل تجارب الأبرار وأحزانهم. قال أيوب: «إذا جرّبني أخرج كالذهب» (أي 23: 10). وكان هذا اختبار يوسف لما باعه إخوته، ولكن الرب كان معه فكان ناجحاً (تك 39: 2). وقد باركه يعقوب أبوه وقال: «يوسف غصن شجرة مثمرة، غصن شجرة مثمرة على عين. مرَّرتْهُ ورَمَتْهُ واضطهدته أرباب السهام، ولكن ثبتَت بمتانةٍ قوسُه» (تك 49: 22–24).

ثانياً - الإنسان الشرير

(آيتا 4، 5)

يقدم لنا المرنم صورة سوداء للإنسان الشرير، ليوضح لنا مقدار بياض صورة الأبرار، لأننا كلما أردنا أن نبيّن بياض شيء نحيطه بالسواد، فيتَّضح بياضه أكثر. صحيحٌ إن الرب قد ميَّز تقيَّه (مز 4: 3).

1 - الشرير في حياته الحاضرة: «ليس كذلك الأشرار! إنهم كالعصافة التي تذرّيها الريح» (آية 4) ما أبعد الفرق بين الشجرة الخضراء الحية والقش اليابس الميت! الشجرة غرسها الكرّام،

أما العُصافة فميِّتة بلا جذور ولا ثمر ولا قيمة، تطير ولا تبقى، فتذريها الريح إلى حيث لا تعلم وإلى حيث لا تشاء. والشر يحمل الشرير إلى حيث لا يعلم ولا يشاء. عندما يبدأ في ارتكاب المعصية يظن نفسه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، ولكن سرعان ما يجد نفسه عبداً للخطية، يدفع ثمن جرمه! لا يستطيع الشرير أن يتحكم في حاضره ولا مستقبله، مهما ظن أنه صاحب سلطان.

أيها المؤمنون، دعونا نشكر الرب لأنه هو الذي غرَسَنا. كنّا عُصافة فجعلنا بنعمته أشجاراً خضراء. لكن إن كنتَ كالعُصافة التي تذريها الريح، فالرب يوجّه الدعوة إليك الآن ليغرسك عند المياه الجارية، فتصبح شجرة زاهية.

2 - الشرير في حياته الآتية: «لذلك لا تقوم الأشرار في الدين ولا الخطاة في جماعة الأبرار» (آية 5). عاقبة الأشرار أنهم لا يستطيعون أن يقوموا على أقدامهم في يوم الدين لأنهم مرتعبون من الله، تصطك ركبهم وترتعب أرجلهم.

وهم لا يقدرون أن ينهضوا أو يقفوا لأنهم طالما سقطوا في الخطية، حتى صارت حياتهم سقوطاً مستمراً، فما عادوا يعرفون كيف يقفون، فينكّسون رؤوسهم خجلاً. وعندما تُفتَح الأسفار وتُعلَن خطاياهم، يظهرون على حقيقتهم، ويسمعون عقوبتهم المخيفة: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية» (مت 25: 41).

ولا يقدر الأشرار أن يقفوا يوم الدين أمام الفحص الإلهي. قال المرنم: «إن كنتَ تراقب الآثام يا رب يا سيد، فمن يقف؟» (مز 130: 3). من يقدر أن يقف في المحكمة الإلهية؟ من يجرؤ على الدفاع عن نفسه؟

ثالثاً - سبب النجاح وسبب الفشل
(آية 6)

1 - سبب النجاح: «لأن الرب يعلم طريق الأبرار». والقول «الرب يعلم» في اللغة العبرية يعني «يعلم بحب». «أما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة» أي أنها مرقّمة! (مت 10: 30) والمسيح الراعي الصالح يعرف خرافه الخاصة ويدعوها بأسماء (يو 10: 3). يعرف الرب المؤمنين ويعرف طريقهم أيضاً!

اطمئن أيها المؤمن فأنت لست وحدك. يمكنك أن تقول: «إذا سرتُ في وادي ظل الموت لا أخاف شراً، لأنك أنت معي» (مز 23: 4). ما أجمل أن تدرك أن المسيح يعلم طريقك، لأنه سار فيه قبلك. تألم مجرَّباً فيقدر أن يعين المجرَّبين. نحن ننتمي إليه. نحن شعبه، غنم مرعاه (مز 100: 3).

2 - سبب الفشل: «أما طريق الأشرار فتهلك». قال الله: «الحائدون عني في التراب يُكتَبون لأنهم تركوا الرب ينبوع المياه الحية» (إر 17: 13). أرجوك ألاّ تُطمئِن نفسك بوهمٍ كاذب، لأن طريق الأشرار تهلك.

والآن، بعد أن رأينا وصف الوحي الإلهي للأشرار والأبرار، من يحب أن يستمر شريراً بعيداً عن الرب؟ إن الرب يقدم لنا أعظم دعوة للتوبة، وأعظم نداء للخلاص المجاني.

ليت كل شرير يفيق من أمانه الكاذب، ويدرك أن طريقه مهما بدت سعيدةً ستنتهي حتماً بالجحيم، فيحيد عنه الآن. وليت كل بار يتشجَّع، وهو يقول للرب: «أنت يا رب عرفتَني. رأيتني واختبرتَ قلبي من جهتك» (إر 12: 3). طوبى للإنسان البار لأن له الحياة الخالدة في المسيح .. وويل للإنسان الشرير في هذه الحياة، وفي الحياة الأبدية.

اَلْمَزْمُورُ الثَّانِي

1لِمَاذَا ارْتَجَّتِ الأُمَمُ، وَتَفَكَّرَ الشُّعُوبُ فِي الْبَاطِلِ؟ 2قَامَ مُلُوكُ الأَرْضِ وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعاً عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ، قَائِلِينَ: 3«لِنَقْطَعْ قُيُودَهُمَا، وَلْنَطْرَحْ عَنَّا رُبُطَهُمَا».

4اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ. الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. 5حِينَئِذٍ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِمْ بِغَضَبِهِ، وَيَرْجُفُهُمْ بِغَيْظِهِ. 6أَمَّا أَنَا فَقَدْ مَسَحْتُ مَلِكِي عَلَى صِهْيَوْنَ جَبَلِ قُدْسِي.

7إِنِّي أُخْبِرُ مِنْ جِهَةِ قَضَاءِ الرَّبِّ. قَالَ لِي: «أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ. 8اسْأَلْنِي فَأُعْطِيَكَ الأُمَمَ مِيرَاثاً لَكَ، وَأَقَاصِيَ الأَرْضِ مُلْكاً لَكَ. 9تُحَطِّمُهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ. مِثْلَ إِنَاءِ خَزَّافٍ تُكَسِّرُهُمْ».

10فَالآنَ يَا أَيُّهَا الْمُلُوكُ تَعَقَّلُوا. تَأَدَّبُوا يَا قُضَاةَ الأَرْضِ. 11اعْبُدُوا الرَّبَّ بِخَوْفٍ وَاهْتِفُوا بِرَعْدَةٍ. 12قَبِّلُوا الابْنَ لِئَلاَّ يَغْضَبَ فَتَبِيدُوا مِنَ الطَّرِيقِ. لأَنَّهُ عَنْ قَلِيلٍ يَتَّقِدُ غَضَبُهُ. طُوبَى لِجَمِيعِ الْمُتَّكِلِينَ عَلَيْهِ.

الخزف يتآمر

قدم لنا المزمور الأول الإنسان في سموّه، فقال: «طوبى للذي لم يسلك في مشورة الأشرار. لكن في شريعة الرب مسرّته». ويقدم مزمور 2 الإنسان وقد سقط من سموّه الروحي وارتكب الخطية وثار ضد الله، وهي ثورة فاشلة، ضد العقل السليم. لذلك يبد أ المزمور باستفهام استنكاري: «لماذا ارتجَّت الأمم؟».

وقد قال رسُل المسيح إن داود هو كاتب هذا المزمور، وذلك في صلاتهم (بعد إطلاق بطرس ويوحنا من السجن الذي أُلقيا فيه بعد شفاء المولود أعرج) إذ قالوا: «أيها السيد، أنت هو الإله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، القائل بفم داود فتاك: لماذا ارتجَّت الأمم، وتفكَّر الشعوب بالباطل؟ قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه». ثم فسَّر التلاميذ كلمات المزمور في نور ما حدث، وقالوا: «لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحتَه، هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كل ما سبقَت فعيَّنت يدُك ومشورتُك أن يكون» (أع 4: 24–28).

إذاً، فهذه الثورة التي حدثت لم تكن في حقيقتها ضد الله، بل كانت تنفيذاً لمشيئته الصالحة والمرضيَّة والكاملة. لقد حقَّقوا مقاصده في الفداء. صحيحٌ أن الثائرين في جهلهم ثاروا، لكن ثورتهم حقَّقت مشيئة الله الملك الحقيقي، دون أن يقصدوا!

واستمرَّ التلاميذ في صلاتهم يقولون: «والآن يا رب انظر إلى تهديداتهم، وامنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة بمدّ يدك للشفاء، ولتُجْر آياتٌ وعجائب باسم فتاك القدوس يسوع» (أع 4: 29). لم يقولوا «انتقِم لنا منهم».ولا «أبِدْهم». بل: «مُدّ يدك لشفائهم»! فتزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة (أع 4: 31). ارتجَّت الأمم بالباطل ضد الرب، وتزعزع المكان بالحق بقوة الرب. ارتجاج الأمم باطل، لأنه ضجَّة لا معنى لها. أما اهتزاز المكان فهو نتيجة بركة الرب للذين امتلأوا من الروح القدس، فغفروا لأعدائهم، وصلّوا لأجل مضطهديهم، وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة.

يقدم لنا مزمور 2 أول نبوَّة وردت في المزامير عن عمل المسيح ومجده، والمقاومة التي يلقاها، وانتصاره النهائي. وهي نبوَّة تتكرر باستمرار على صفحات الكتاب المقدس، وقد تحققت في تاريخ الكنيسة، ولكن تحقيقها الكامل والنهائي سيتم عند مجيء المسيح ثانيةً في مجد سماوي عظيم، ليُرهب الذين يقاومون مشيئته ويجعلهم يدفعون ثمن ثورتهم الفاشلة، فيحطمهم بقضيب من حديد ومثل إناء خزاف يكسرهم. فاليوم نرى المسيح ملكاً مرفوضاً من كثيرين، ولكن وقت إعلان انتصاره آتٍ «لأنه لمَن مِن الملائكة قال قط: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك. وأيضاً أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً» و«كذلك المسيح أيضاً لم يمجد نفسه ليصير رئيس كهنة، بل الذي قال له أنت ابني. أنا اليوم ولدتك» (عب 1: 5 و5:5).

هذا المزمور ترتيلة من أربعة أعداد، يتكوَّن كل عدد منها من ثلاث آيات، تقول إن الله سينفّذ قصده في ابنه وفي مسيحه، وسيؤسس مملكته. والخطر كل الخطر على من يقاومه. والبركة كل البركة لمن يملِّك هذا الملك القوي المنتصر على قلبه.

سينفّذ الله مقاصده رغم مقاومة بعض البشر الجاهلين، ولو كره الكارهون، فتهتف كل المسكونة: «أنت مستحقٌّ أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخُلقت» (رؤ 4: 11).

ثورة البشر ضد الله ثورة غير منطقية، وفاشلة.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – ثورة الناس ضد الرب (آيات 1–3)

ثانياً – جواب الله الآب على هذه الثورة (آيات 4–6)

ثالثاً – جواب المسيح على هذه الثورة (آيات 7–9)

رابعاً – نداءٌ للتعقُّل (آيات 10–12)

أولاً ـ ثورة الناس ضد الرب
(آيات 1-3)

يبدأ أول عدد في ترتيلة مزمور 2 بالتساؤل: «لماذا ارتجّت الأمم؟ لماذا قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه، قائلين: لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما؟». وهذا وصفٌ للكراهية التي تملأ نفوس كثيرين من البشر للمسيح، فيثورون عليه ويعصونه في حماقة، كما فعل هيرودس وهو يحاول أن يقتل المسيح الوليد خوفاً على عرشه ونفوذه (مت 2: 16)، وكما قال قيافا: «خيرٌ لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها» (يو 11: 50)، وكما حنق شيوخ اليهود على تلاميذ المسيح الذين كانوا يعظون بالمسيح المخلِّص، فتشاوروا أن يقتلوهم (أع 5: 33).

لقد اعتقد هؤلاء الجهَلة أن الشريعة الإلهية قيود ورُبط تضايقهم، بينما هي لخيرهم. هل سمعت عن قطارٍ يثور على القضبان لأنها تحدُّ حريته؟ ألا ترى أن الذين يقاومون إرادة الله هم أطفال في التفكير الروحي، لا يعرفون أن القيود لازمة لهم؟

العالم كله في ثورة ضد الرب وضد المسيح. الأمم والشعوب والملوك والرؤساء يرتجّون كالبحر الهائج، يفكـــرون ويقاومون ويتآمرون، ليقطعوا ما يظنونه «قيود الرب» وليطرحوا ما يعتقدون أنه «رُبط» تحرمهم من السعادة. يتّفقــون على محاربة رئيس السلام، فيثورون ضد الحكم الإلهي! يريدون أن يكونوا أحراراً في ارتكاب ما يشتهون، وهذا التفكير «باطل» عاطل عن الصواب، وبلا نتيجة، فالله هو الخالق وضابط الكل وصاحب السلطان في السماء والأرض.

ثم أن الرب لا بد أن يملك، لأنه الملك وصاحب السلطان، و«يوم مجيئه.. مثل نار الممحِّص (المنقّي)، ومثل أشنان (مادة حمضية تدخل في تصنيع الصابون) القصَّار (مبيِّض الثياب).. فهوذا يأتي اليوم المتَّقد كالتَّنور، وكل المســتكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً، ويحرقهم اليوم الآتي.. فلا يُبقي لهم أصلاً ولا فرعاً» (ملا 3: 2 و4: 1).

عندما سمع الملك هيرودس أن مولوداً ملكياً وُلد في بيت لحم حاول أن يقتله ليحتفظ بالعرش لنفســه ولأولاده مــن بعده. فهل العرش عرش هيرودس؟ إنه أمانة أوكلها ملك الملوك إليه! وأمر هيرودس بقتل كل طفل عمره ســنتان فمــا دون. ولكن الرب أمر يوسف أن يأخذ الطفل وأمه إلى مصر. وانتهى مُلك هيرودس وسيظل ملكوت الله إلى أبد الآبدين!

تعلَّم نبوخذنصَّر ملك بابل، أعظم حكام زمانه، درساً في سلطان الذي لا يُقاوم، فقال: «أنا نبوخذنصَّر أسبّح وأعظّم وأحمد ملك السماء، الذي كل أعماله حق وطرقه عدل. ومَن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يُذلّه» (دا 4: 37).

لماذا تفكّر الشعوب في الباطل؟ إنهم جهَّال! فلننحنِ أمام الله الخالق صاحب السلطان، المحب المعتني الذي يستحق السجود والطاعة والعبادة. وإن كان نير المسيح قاسياً على من لا يحب المسيح، فإنه هيِّنٌ وخفيف على من تمتَّع بخلاص المسيح.

ثانياً ــجواب الله الآب على هذه الثورة
(آيات 4-6)

يعلن العدد الثاني من ترتيلة مزمور 2 ردَّ الفعل الإلهي على الثورة الفاشلة:

1 - الرب يضحك: «الساكن في السماوات يضحك» (آية 4). الأمم يرتجّون وهو يضحك ســخريةً، لأن الخليقــة تقاوم خالقها! هل تقول الجبلة لجابلها: ماذا تفعل؟ إنها ثورة باطلة وعاجزة. هي ضوضاء بلا نتيجة. هم كطفلٍ يصــرخ ثائراً على والديه، ويهرب منهما بالاختباء تحت سريره! ولكن يد أبيه تطوله، لأنه لا بد من تنفيذ خطــة الأب المحــب الذي لا يفكر إلا في فائدة ولده ومصلحته. ونلاحظ الهدوء الذي يشعُّ من جلال الله كلي القدرة، والسخرية من الخــاطئ الثائر على الإله الذي به يحيا ويتحرك ويوجد!

إلى أين نهرب من الرب؟ نزل يونان إلى جوف السفينة، وهناك امتدَّت يد المحبة الكبيرة لترسل ريحاً، ولتُعِدّ حوتاً يبتلع يونان ويُرجعه إلى حيث يجب أن يكون. ألا نفعل ذلك كثيراً عندما يكلمنا الله برسالة فنتشاغل عنهــا؟.. وعنــدما نتصرف بطريقة خاطئة يقول الرب لنا: أنت تدمر حياتك وتبتعد عني.. إلى أين؟ هل تهرب من المشيئة الإلهية؟ حتــى متى ترتكب الحماقات؟!

2 - الرب يوبِّخ: «حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه» (آية 5). لمسهم لمسة الحب، فلم يستجيبوا، فجاء موعد التوبيخ. عندما يجري أولادنا منا نضحك أولاً، ثم نوبخهم لأنهم لم يستجيبوا لنداء الحب، ولم يفهموا مقاصدنا الأبوية لصالحهم.

لا تزال السماء صامتةً رغم تجاديف الثائرين ضد الله، ولا زال الله يعلن أخبار غفرانه وخلاصه. لكن لا بد أن يجيء الوقت الذي يضع الله فيه أعداءه موطئاً لقدميه، ويرجف أعداءه بغيظه في يوم الانتقام والغضب!

3 - الرب يعلن: «أما أنا فقد مسحتُ ملكي على صهيون جبل قدسي» (آية 6). في آية 2 رأينا التآمر ضد مسيح الرب. ولكن الرب يعلن أنه قد مسح مَلِكه بمسحة الروح القدس، ليتحقق ما يريده الله، وهو مُلك مسيحه. وعليهم أن يقبلوا مشيئته لأنها لخيرهم ولأنه يحبهم.

الله يضحك. الله يوبخ. الله يعلن أن مشيئته هي الصالحة المَرْضيَّة الكاملة التي سبق تعيينها. فلتكن مشيئة رب الجنود.

وهذا الإعلان الإلهي يرينا أن المسيح ملك شعبه، يدافع عنهم ويدبِّر أمورهم ويرسم لهم خطة حياتهم، «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحة، قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف 2: 10). وهو ملكٌ على أعدائه، يُخضِعهم ليحققوا خططه وهم لا يدرون، كما قال بطرس ويوحنا لليهود: «إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إله آبائنا، مجَّد فتاه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم، وأنكرتموه.. ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات» (أع 3: 13–16) . لقد أعلن الله أنه مسح مَلِكه على صهيون «الحصن» جبله المقدس، الذي تُقام فيه العبادة لملك السماء والأرض.

ثالثاً ـ جواب المسيح على هذه الثورة
(آيات 7-9)

«تآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه» فأعلن الآب أنه مسح ملكه، فلن يقاومه أحد. ويجاوب المسيح على ثورة الأمم ضده بأن:

1 - يعلن أزليته: «إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك» (آية 7). يقول الأب البشري لابنه: «اليوم ولدتُك، فأنت ابني». أما الآب السماوي فيقول للمسيح: «أنت ابني. أنا اليوم ولدتك». فهو ابنٌ من قبل مولده، ووجوده سابق لميلاده. إنه ابن الله قبل كل الدهور، وولادته من العذراء أعطته الجسد الإنساني. فالمسيح هو المولود غير المخلوق، المساوي للآب في الجوهر. هو الكلمة الأزلي، الواحد مع الآب، لا بداية أيام له، ومخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل (مي 5: 2). ولكن «اليوم ولدتك» وهكذا دخل المسيح إطار الزمن لأنه «لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس» (غل 4:4). المسيح هو ابن الله من الأزل، وفي ملء الزمان جاء وتمَّم العمل الذي كُلِّف به، ثم قال للآب: «العمل الذي أعطيتَني لأعمل قد أكملتُه. والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو 17: 4، 5).

يقول الابن الملك: «أخبركم من جهة الترتيب الإلهي بقضاء الرب. قال لي: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك». وهنا يعلن المسيح حقوقه كالملك الممسوح من الله. في آية 2 رأينا مؤامرة فاشلة «تآمروا». وفي آية 7 نرى «قضاء الرب» والتدبير الإلهي المقدس.

2 - يعلن مُلكه: يقول إن الآب قال له: «اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك» (آية 8). كان الملوك العظماء يعطون المقرَّبين ما يطلبونه «ولو إلى نصف المملكة» (أس 5: 6 ومت 14: 7). فهذا الابن الأزلي الذي دخل إطار الزمن والمكان، يعطيه الآب السماوي المُلك. «تذكر وترجع إلى الرب كل أقاصي الأرض، وتسجد قدامك كل قبائل الأمم» (مز 22: 27). فلا بد أن «تجثو باسم يسوع كل ركبة ممَّن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب» (في 2: 10، 11).

وإعلان المسيح لمُلْكه يعلّمنا أن إلهنا ديمقراطي يسمح بقيام حزب معارضة، ويقبل أن إبليس رئيس هذا العالم، وأتباعه من الأمم والشعوب، يرتجّون ويفكرون ويقومون ويتآمرون ويقولون: «لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما» ومع ذلك فإنه يرزقهم ويمنحهم الحياة ويعطيهم إمكانية الثورة ضده. إنه يُطيل أناته عليهم لعلهم يتوبون، لأنه يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبِلون. ورغم المعارضة الفاشلة فإنه هو الحاكم الأعلى، وصاحب السلطان الكامل.

3 - يعلن تأكيد انتصاره: يقول المسيح للآب: «تحطمهم بقضيب من حديد. مثل إناء خزّاف تُكسِّرهم» (آية 9). قاموا ضده فيحطمهم تحطيماً لا قيام لهم من بعده، فإناء الخزف المكسور لا يمكن إصلاحه، ولا يصلح لشيء، ولا يمكن إعادة تشكيله مرة أخرى. لقد دعا الله البشر دعوة محبة ليرجعوا إليه ويخضعوا له. وكل من يقبل دعوته ينال البركة، وكل مَن يرفضها يتحمّل العواقب، فكل ما لا يتأسس على الصخر ينهار.

رابعاً ـ نداءٌ للتعقُّل

(آيات 10-12)

بعد أن تساءل النبي داود عن سبب الثورة الفاشلة ضد الله وشرائعه، وبعد أن شرح ردَّ الفعل الإلهي، وردَّ فعل المسيح على هذه الثورة، يدعو كل الأمم والشعوب للتعقُّل والتأدُّب في حضرة الله، لأنه ملك الملوك ورئيس القضاة، وصاحب السلطان في السماء وعلى الأرض.

1 - يدعوهم للحكمة: «يا أيها الملوك تعقَّلوا. تأدَّبوا يا قضاة الأرض» (آية 10). إنهم ملوك وقضاة لأن الله منحهم هذه الرُّتَب، والله هو الملك والقاضي الأعلى، وله يؤدّون الحساب! إن مخافة الرب هي الحكمة، والحيدان عن الشر هو الفهم، ومخافة الرب هي رأس المعرفة، أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب (أي 28:28 وأم 1: 7). من الحكمة أن نصغي لنتعلَّم، لأن التعليم السماوي يخلِّصنا إن قبلناه، وهو ينصحنا أن نحكّم عقولنا وأن نخضع له بسرور.

وقد يقول قائل: لستُ ملكاً ولا قاضياً. فنجيب أن كل واحد منا رب بيت أو رب عمل. وكلنا مسؤولون نصدر أحكاماً كل يوم: على أولادنا وعلى إخوتنا وعلى زملائنا. فلنطع المسيح ولنتعقَّل ونتأدَّب في مخافة الرب، ولنطلب منه الرحمة والحكمة.

2 - يدعوهم للعبادة: «اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعدة» (آية 11). والعبادة هي خدمة الله، فإن كلمتي «عَبَد» و«عبْد» من أصل واحد. فالذي يعبد هو الذي يخدم. والعبادة هي خدمة نؤديها لله، لا بالكلام ولا باللسان ولكن بالعمل والحق. إنها دعوة أن نخدم بخوف التقوى الممتزج بالطاعة. ويجب أن يمتزج هتاف الفرح بالخوف المقدس، فالخوف بدون فرح هو عذاب، والفرح بدون خوف هو مجرَّد ادِّعاء!

3 - يحذّرهم من الثورة: «قبّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق، لأنه عن قليل يتّقد غضبه» (آية 12). وللقُبلة في الكتاب المقدس ثلاثة معانٍ:

(أ) **قُبلة التسليم:** فنقول التوراة إن النبي صموئيل أخذ قنّينة الدهن وصبّ على رأس شاول الملك وقبّله وقال له: «الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً» (1صم 10: 1). وهذا ما يجب أن نفعله مع الابن الحبيب، مسيح الرب. نُقبّله فنقبل سلطانه على حياتنا.

(ب) **قبلة العبادة:** قال الله لإيليا: «أبقيتُ في إسرائيل سبعة آلاف، كل الرُكب التي لم تجثُ للبعل، وكل فم لم يقبّله» (1مل 19: 18). فالتقبيل هنا يعني العبادة. فلننحنِ للمسيح الابن، ولنقُل له مع توما: «ربي وإلهي» (يو 20: 28).

(ج) **قُبلة الحب:** وقد أمر الرسول بطرس مسيحيي الكنيسة الأولى: «سلّموا بعضكم على بعض بقبلة المحبة» (1بط 5: 14). فلنقبّل الابن بقبلة المحبة، متمّمين الوصية الأولى والعظمى: «تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك» (مر 12: 30).

فلنقدم للمسيح الابن الملك كل التسليم، وكل العبادة والتكريم، وكل المحبة، لأنه وحده يستحق هذا كله. فإن كنا نغتنم هذه الفرصة نتبارك وإن رفضناها نهلك.

4 - يدعوهم للاتكال عليه: «طوبى لجميع المتكلين عليه» (آية 12). والاتكال هو السلوك بناءً على الثقة التي لنا في المسيح، والعمل بحسب ما يقول، لأننا نثق في توجيهاته ووعوده. فليكن اتكالنا على المسيح حقيقياً، فنُخضع مشيئتنا لمشيئته الإلهية.

وفي ختام تأملنا في هذا المزمور أعود بكم إلى أعمال 4: 31 حيث يقول: «لما صلّوا تزعزع المكان». فلنُطع الأمر السماوي «قبّلوا الابن» ليتزعزع المكان من حضوره، ولنتبارك لأنه هنا، حاضرٌ في قلوبنا وفي بيوتنا وفي كنيستنا. قدّموا له السجود واهتفوا برعدة التقوى، ليمتلئ المكان بحضوره وسطنا، ولنمتلئ جميعنا بالروح القدس، ثم ننطلق لنخبر بكلمة الرب بمجاهرة.

اَلْمَزْمُورُ الثَّالِثُ

مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ حِينَمَا هَرَبَ مِنْ وَجْهِ أَبْشَالُومَ ابْنِهِ

1يَا رَبُّ، مَا أَكْثَرَ مُضَايِقِيَّ. كَثِيرُونَ قَائِمُونَ عَلَيَّ. 2كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِي: «لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلَهِهِ». سِلاَهْ.

3أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَتُرْسٌ لِي. مَجْدِي وَرَافِعُ رَأْسِي. 4بِصَوْتِي إِلَى الرَّبِّ أَصْرُخُ، فَيُجِيبُنِي مِنْ جَبَلِ قُدْسِهِ. سِلاَهْ.

5أَنَا اضْطَجَعْتُ وَنِمْتُ. اسْتَيْقَظْتُ لأَنَّ الرَّبَّ يَعْضُدُنِي. 6لاَ أَخَافُ مِنْ رِبَوَاتِ الشَّعْبِ الْمُصْطَفِّينَ عَلَيَّ مِنْ حَوْلِي. 7قُمْ يَا رَبُّ. خَلِّصْنِي يَا إِلَهِي. لأَنَّكَ ضَرَبْتَ كُلَّ أَعْدَائِي عَلَى الْفَكِّ. هَشَّمْتَ أَسْنَانَ الأَشْرَارِ. 8لِلرَّبِّ الْخَلاَصُ. عَلَى شَعْبِكَ بَرَكَتُكَ. سِلاَهْ.

رافع رأسي

كتب النبي داود مزموري 3، 4 حين هرب من وجه ابنه أبشالوم، بعد أن حاول أبشالوم القيام بانقلاب ضده. وكان الموقف قاسياً جداً على داود، فهو ملك مرفوض من أغلبية شعبه، وأبٌ مرفوض من ابنه! وانحازت أغلبية الشعب إلى صف أبشالوم، وإن كانت جماعة أمينة قليلة العدد بقيت مع داود، فاضطر أن يهرب من قصره حافي القدمين، لأن الفرصة لم تسنح له أن يستعد للخروج من القصر. في هذا الموقف القاسي وجد داود تعزيته في الرب، فرفع صلاته في هذا المزمور، وهو مزمور صباحي، كتبه بعد ليلة صرفها في خوف بالغ، قال بعدها: «أنا اضطجعتُ ونمت. استيقظتُ لأن الرب يعضدني» (آية 5). ورفع صلاته في المزمور الرابع، وهو مزمور مسائي، كتبه بعد يوم خطير انتهى بالخير، فقال فيه: «بسلامةٍ أضطجع بل أيضاً أنام، لأنك أنت يا رب منفرداً في طمأنينة تُسكّنني» (آية 8).

هرب الملك من قصره ليلاً. ولما أشرق عليه الصباح بخير كتب مزمور 3. وفي نهاية اليوم الأول من هروبه كتب مزمور 4. لقد انقضى يوم قاسٍ استودع داود بعده نفسه بين يدي إلهه. فإن جاءت مشاكلنا في بدء يومنا، نستطيع أن نختم يومنا بين يدي إله محب. وإن جاءت في ليلنا فإننا ندرك أنه «عند المساء يبيت البكاء وفي الصباح ترنُّم» (مز 30: 5) لأن إلهنا معنا. وإذا جاءتنا مشاكل الحياة في بدئها ندرك أننا لا بد سنختم حياتنا بين يدي إله محب. وإذا داهمتنا المتاعب عند نهايتها ندرك أن شمسنا لا بد تغرب بين يدي إله محب.

يملأ المزموران 3، 4 قلوبنا باطمئنان عظيم، لأن إلهنا هو الألف والبداية كما أنه الياء والنهاية. ألفنا منه وياؤنا إليه. له نرفع ترنيمة الصباح، وإليه نرتل حمد المساء.

رأينا في مزمور 2 ثورة من الخارج على مسيح الرب، ونرى في مزمور 3 داود يواجه ثورة من داخل بيته ومملكته، من ناسٍ لم يكن يتوقع منهم ذلك. ولئن كان الضيق الذي يواجهنا من الذين هم من خارج صعباً، فالذي يواجهنا من القريبين منا أكثر صعوبة. لكن داود (في مزموريه 3، 4) يرينا عناية الله واطمئنان أولاده، سواء جاء الضيق من

بعيد أو من قريب. لقد قال في ختام مزمور 2 «طوبى لجميع المتكلين عليه». وختم مزمور 3 بقوله: «للرب الخلاص». ويختم مزمور 4 بقوله: «في طمأنينة تسكّنني».

وردت قصة محاولة انقلاب أبشالوم الفاشلة ضد أبيه داود في 2صموئيل 15–18. رتل داود بعدها هذا المزمور.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – شكوى المرنم (آيتا 1، 2)

ثانياً – ثقة المرنم (آيتا 3، 4)

ثالثاً – طمأنينة المرنم (آيتا 5، 6)

رابعاً – صلاة المرنم (آيتا 7، 8)

أولاً ـ شكوى المرنم

(آيتا 1، 2)

لداود كل الحق أن يشكو، فإن ابنه انقلب عليه وثار ضده، وعندما مشى حافي القدمين منحني الرأس لم يستطع أن يجد تبريراً لذلك. ربما قال القليلون من أصحابه إنه لم يحسن تربية ولده. أما أعداؤه فلا بد قالوا إن خطايا داود وسوء قدوته ألَّبت ابنه عليه، ولا بد أن إلهه تركه حتى ثار ابنه ضده، ولا بد أن عبادته وتراتيله رياءٌ ونفاق!

وكم من مرة وجدنا أنفسنا في موقف لا نستطيع فيه أن نشكو للناس، لأننا نرى في عيونهم الانتقاد الموجَّه إلينا. لذلك توجَّه داود إلى الله يقول: «سأحكي لك همي لأني أعرف النتيجة المضمونة لهذه الشكوى. يا رب، ما أكثر مضايقيَّ. كثيرون قائمون عليَّ. كثيرون يقولون لنفسي: ليس له خلاص بإلهه». ويقول المؤرخ المقدس: «انطلق مع أبشالوم مئتا رجل من أورشليم قد دُعوا وذهبوا ببساطة، ولم يكونوا يعلمون شيئاً» (2صم 15: 11). ألم يكن داود ملكاً عظيماً قدم خدمات لهؤلاء الكبار في مملكته؟ وها هم الآن ينقلبون عليه، بعضهم بمعرفة وبعضهم بجهل. غير أن الخطورة الأكبر كانت من الذين وقفوا ضد داود يقولون له: «ليس لك خلاص بإلهك». وقد حطمت هذه الكلمات نفسية داود فأدخلت الشكوى إلى أعماقه. لو أنهم قالوا هذا «لعقلي» لطردتُ الفكرة، لكن الشكوى بدأت تدخل إلى أعماقي. إنك لم تعُد تقف إلى جواري. هل حقاً يا رب طردتني من محضرك؟

لكن شكراً لله، فقد عرف داود أن يتجه بشكواه إلى من ينصفه، وكان هذا سبب إنقاذه. حتى لو قالوا له إن الله تركه فإنه يلجأ إليه، إذ ليس له سواه. «مَن لي في السماء؟ ومعك لا أريد شيئاً في الأرض» (مز 73: 25).

ويحكي داود شكواه إلى الله، ويسجّلها مزموراً يرتله الأتقياء من بعده، ليخبر بفضل الله الذي لا يخيب من يشكو إليه.

ثانياً ـ ثقة المرنم

(آيتا 3، 4)

يبدأ المرنم القسم الثاني من هذا المزمور بالاتجاه إلى الله، فيقول: «أما أنت يا رب فترسٌ لـــي». والتـــرس قطعـــة خشب مغطاة بالجلد، يتلقّى الجندي بها السهام الموجهة ضده، فينغرس فيها سنُّ السهم.

وكأن داود يقول: يا رب أُحوّل نظري من المشكلة إليك. الموقف عصيب، ويبدو للناظر أنه لا أمل، فأنـــا هـــارب طريد. ولكني أرى ما لا يُرى: أراك أنت، فألتفت لا للأمم ولا لأُمَّتي، لكن إليك أنت وحدك.

ويرى المرنم في إلهه: الترس، والمجد، ورفع الرأس، وسامع الصلاة:

1 - الرب ترس المرنم: «أما أنت يا رب فترسٌ لي» (آية 3أ). الرب ترس الحماية الكاملة. تذكر وقوفـــه أمـــام جليات الجبار! مجرد ولد صغير أمام الجبار المتسلح الذي لم يكن يستطيع رغم جبروته أن يحمل كل ما معه من سلاح، فكان يتبعه رجل آخر يحمل له سلاحه. ولم يكن سلاح داود سوى عصا ومقلاع وخمسة أحجار! ولكن الترس لم يستطع أن يحمي الجبار، فسقط أمام داود. ولم يكن داود يملك ترساً خشبياً، لكنه كان يملك الترس الحقيقي «أما أنـــت يـــا رب فترس لي». أنت حمايتي، أنت قلعتي. إليك أتوجه وأحتمي بك.

وردت كلمة «ترس» لأول مرة في الكتاب المقدس في قول الله لإبراهيم خليله: «لا تخف يا أبرام. أنا تـــرس لـــك. أجرك كثير جداً» (تك 15: 1). وتذكّر داود موقف الله مع إبراهيم الذي كان قد قاد معركـــة حربيـــة (كانـــت الأولـــى والأخيرة في حياته) لينقذ ابن أخيه لوطاً من الذين أسروه، ونصر الله خليله! وتوقَّع إبراهيم أن الملك كدرلعومر المهزوم والملوك المحيطين به لا بد أن يعودوا ليحاربوه بعد أن أصبحت قوته الحربية تهديداً لهم. ولعل إبراهيم خاف. لقد أنقـــذ ابن أخيه، ولكن لوطاً لم يشكره (مع أن ملك سدوم وعمورة شكره). ولا طلب لوط أن يعود للعيش مع عمـــه إبـــراهيم. كان إبراهيم في موقـــف ضـــعف وخـــوف، فأمَّنـــه الله مـــن خوفـــه وقـــال لـــه: «لا تخـــف. أنـــا تـــرس لـــك». ورأى داود أن الله سيتصرف معه بنفس الطريقة، فقال له: «أنت ترسٌ لي».

2 - الرب مجد المرنم: «أنت مجدي» (آية 3ب). مجده حتى في وحدته. كان قبل محاولة الانقلاب ملكَ الـــبلاد. كان مجده في مملكته وعرشه وجيشه وعائلته. أما الآن فهو مطارَد هارب حافي القدمين يبكي. كـــل مجـــده السياســـي والأرضي انتهى، والذين أحاطوا به من أصدقائه كانوا يشفقون عليه أكثر مما يحترمونه.

ولكن إن كان مجد داود المنظور قد ضاع، فإن الرب مجدٌ له لا يمكن أن يضيع منه أبداً.

ربما نستمد مجدنا من أسرة مشهورة ننتمي إليها، أو من درجة علمية نعتزّ بها، أو من ذكاء نحسب أنه يمكـــن أن ينقذنا من كل مأزق، أو من صحة نظن أنها تنفعنا. لكن في لحظة قد يضيع هذا كله، ويبقى الرب وحده لنا إن كان هـــو مجدنا، وإن كنا قد أقمنا علاقة محبة شخصية بيننا وبينه. إن صاحب المجد الحقيقي هو الذي يقدر أن يقف موقف داود، وقد ضاع منه كل شيء، يقول: «أما أنت يا رب فترسٌ لي».

3 - الرب رافع رأس المرنم: «رافع رأسي» (آية 3ج). يصف المؤرخ المقدس هروب داود بقولـــه: «أمـــا داود فصعد في مصعد جبل الزيتون. كان يصعد باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافياً، وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد رأسه، وكانوا يصعدون وهم يبكون» (2صم 15: 30). لقد غطوا رؤوسهم حزناً وخزياً، ولن يرفع رؤوسهم إلا الرب. لئِن أحني العالم رؤوسنا فإن الرب وحده هو الذي يرفعها، إن كنا نتبعه وإن كنا من محبّيه.

4 - الرب سامع صلاة المرنم: «بصوتي إلى الرب أصرخ فيجيبني من جبل قدسه» (آية 4). كان تابوت العهد موجوداً في جبل الرب المقدس، وهو يرمز إلى حلول الرب وسط شعبه. في التابوت حفظوا لوحي الوصايا العشر، وقسطاً من المن، وعصا هارون اليابسة التي أفرخت. وهذه كلها تشير إلى أمانة الرب وهدايته وإرشاده لشعبه.

لقد تعوَّد داود أن يدعو الله ويصلي في وقت الرحب كما في وقت الضيق، وتعوَّد على تلقّي الرد في كل وقت. وها هو يصلي الآن واثقاً أن الله الذي وقف معه دائماً سيقف معه في هذا اليوم العصب.

ثالثاً - طمأنينة المرنم

(آيتا 5، 6)

في الآيتين 5، 6 من المزمور نرى السلام الذي ملأ قلب داود. لقد أعلن ثقته في الله ترسه ومجده ورافع رأسه وسامع صلاته، فاطمأن قلبه.

1 - راحة المطمئن: «أنا اضطجعت ونمت» (آية 5أ). كان يمكن أن يهاجم أحد رجال أبشالوم داود ويقتله وهو نائم. وكان يمكن أن يكون أحد المحيطين به جاسوساً لأبشالوم يقتل داود أثناء نومه. كل هذا محتمَل. ومع هذا فقد نام نوماً هادئاً، لأن الله «يعطي حبيبه نوماً» (مز 127: 2) لا نوم المخدوعين، بل نوم الواثقين في عناية الرب، المطمئنين لعنايته. ولما استيقظ قال: «استيقظتُ لأن الرب يعضدني» (آية 5ب) فيقظته تؤكد أن الله حفظه.

نام بطرس في السجن نوماً عميقاً، رغم أن الملك هيرودس كان سيقتله في اليوم التالي! نام بين عسكريين مربوطاً بسلسلتين. وكان أمام الباب حراس. وجاء ملاك الرب فأضاء نورٌ سماوي غرفة السجن. ولم يستيقظ بطرس! فضرب الملاك جنبه وأيقظه قائلاً: «قُم عاجلاً». فسقطت السلسلتان من يديه (أع 12: 6-8). نام بطرس لأنه كان يدرك أن الموت لن يؤذيه بل سيوصلّه إلى مقرِّه الأبدي ليستريح عند أبيه السماوي. الموت لا يُخيف المؤمن لأنه انتقال. يبدأ المؤمن حياته الأبدية هنا والآن، ثم ينتقل ليكون في حياة أبدية مع الرب لا تنتهي أبداً. إنه ينام مطمئناً. لقد أسند رأسه على كتف إلهه فنام مطمئناً تحت جناحي ربه، فاستيقظ في أمان. وسواء كانت يقظته في محضر الرب في المجد، أو بين أحبائه على الأرض، فإنه يقول للرب في الحالتين: «أنا اضطجعت ونمت. استيقظت لأن الرب يعضدني».

2 - سلام المطمئن: «لا أخاف من ربوات الشعوب المصطفّين عليَّ من حولي» (آية 6). كان سلامه بالرغم من الظروف وليس بسببها. لم يقلِّل داود من حجم مشكلته. كان أعداؤه كثيرين ومتحمسين وحكماء، لكنه رأى نقاط القوة في جانبه. كان عشرات الآلاف مصطفّين حوله، ولكنه مع الله أغلبية. لم يحسب نفسه عظيماً فإنه ليس كذلك، لكنه قدَّر قوة الإله الذي يعبده، وقارن حجم المشكلة التي تواجهه بحجم السلطان الإلهي، فامتلأت نفسه بالطمأنينة.

رابعاً - صلاة المرنم

(آيتا 7، 8)

بعد أن بثَّ داود شكواه، وأعلن ثقته في الرب رافع رأسه، وامتلأت نفسه بالسلام، فعاد يصلي. في مطلع المزمور قال: «يا رب، ما أكثر مضايقيَّ» وهو لحن حزين منكسر. ولكن صلاة نهاية المزمور لحن فرحٍ ظافر، تقول: «للرب

الخلاص. على شعبك بركتك». وبهذه النهاية المنتصرة يتم ختام كل موقف قاسٍ يمرُّ فيه أحباء الله. يبدأون بالدموع وينتهون بالابتهاج.

ونجد في صلاة داود طلبتين:

1 - طلبة لنفسه: «قُم يا رب. خلِّصني يا إلهي» (آية 7أ). في ضيقه دعا الرب ليقوم ويعمل، لأنه حي ويهتم، فناداه ليُعينه. إلى مَن يذهب إلا إليه! إنه رب الجنود، الذي يقود جيوش الملائكة لينقذ داود الضعيف في موقفه المخيف. ماضي الله مع داود يشهد للخلاص العظيم الذي ناله من إلهه، فقال له: «لأنك ضربت كل أعدائي على الفك. هَشَّمت أسنان الأشرار» (آية 7ب). راجع داود اختباراته الماضية، وتذكر كيف أن أسداً هاجم قطيعه، وأخذ شاة، فقتله وأنقذها من فمه. وتذكر هجوم جليات عليه، فقتله وسقط الجبار أمامه (1صم 17: 35، 48–50). وتذكر مطاردة الملك شاول وجيشه له وكل محاولات قتله، ولكنها جميعها باءت بالفشل. مملكة قامت ضد رجل واحد، فقال داود لشاول: «وراء مَن خرج ملك إسرائيل؟ وراء مَن أنت مطارِد؟ وراء كلب ميت! وراء برغوثٍ واحد!». (1صم 24: 14 و26: 20). ولكن كل المملكة لم تستطع أن تؤذي داود الذي أطلق على نفسه وصف «برغوث واحد» يقفز من مكان لمكان هارباً أمام مطارده. لم يصلِّ داود طالباً الانتقام من عدوّه، لكنه وصف ما فعله الله بالأشرار الذين يقاومون مشيئته الصالحة. لا بد أن يضربهم الرب على عظمة الفك الناطق بالتجاديف، الذي سنَّ أسنانه ليلتهم شعب الرب. يحطم الرب رأس التنين!

2 - طلبة لشعبه: «للرب الخلاص. على شعبك بركتك» (آية 8). إنه واثق أن الرب صاحب الخلاص. صحيحٌ أن داود أرسل أحد مستشاريه المخلصين إلى أبشالوم ليُبطل مشورة أخيتوفل مستشار أبشالوم المشهور بحكمته. وصحيحٌ أنه أرسل كاهنين عظيمين لينقلا إليه أخبار معسكر أبشالوم. لكن هذا وحده لا ينفع داود بشيء، فالخلاص لا يجيء من ذكائه ولا من تدبيره ولا من استحقاقه، مع أنه يجب أن يفكر ويدبر. إنما الخلاص يجيء من الله وحده.

«للرب الخلاص» فهو من أوله إلى آخره بالنعمة. هو عمل الله المرتفع فوق الجميع، صاحب اليد العليا الممتدَّة إلى أسفل لتنتشل الضائعين. نعمته تختار خاصته، وروحه يحييهم، وقوته تحفظهم. «فإذاً ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى، بل لله الذي يرحم» (رو 9: 16).

«على شعبك بركتك». هنا يطلب داود البركة للشعب السائر معه، والثائر عليه. وهذا يذكرنا بموقف ابن داود الذي طلب البركة والغفران لصالبيه وقال: «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو 23: 34).

قام كثيرون ضد داود، ولكنه يقول: يا رب، من فضلك بارك شعبك. هل عملت خيراً لإنسان فردَّه لك شراً؟ لا تندم على الخير الذي فعلتَه ولا تيأس. بارِك الذين يسيئونك، ويسبّبون لك الضيق، لأن للرب الخلاص. «باركوا على الذين يضطهدونكم. باركوا ولا تلعنوا» (رو 12: 14).

تعالوا نرفع للرب ترنيمة كل صباح من كلمات المزمور الثالث. ولنختم يومنا بكلمات المزمور الرابع. ولنتصرَّف في كل مشكلة تواجهنا كما تصرف داود، فنشكو لله لأننا نثق فيه، ثم نعيش في سلام، على صلة عميقة بإله المحبة الذي يُخرجنا من كل مأزق منتصرين.

اَلْمَزْمُورُ الرَّابِعُ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ عَلَى ذَوَاتِ الأَوْتَارِ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1عِنْدَ دُعَائِيَ اسْتَجِبْ لِي يَا إِلَهَ بِرِّي. فِي الضِّيقِ رَحَّبْتَ لِي. تَرَاءَفْ عَلَيَّ وَاسْمَعْ صَلاَتِي.

2يَا بَنِي الْبَشَرِ حَتَّى مَتَى يَكُونُ مَجْدِي عَاراً! حَتَّى مَتَى تُحِبُّونَ الْبَاطِلَ وَتَبْتَغُونَ الْكَذِبَ! سِلاَهْ. 3فَاعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ قَدْ مَيَّزَ تَقِيَّهُ. الرَّبُّ يَسْمَعُ عِنْدَ مَا أَدْعُوهُ. 4ارْتَعِدُوا وَلاَ تُخْطِئُوا. تَكَلَّمُوا فِي قُلُوبِكُمْ عَلَى مَضَاجِعِكُمْ وَاسْكُتُوا. سِلاَهْ. 5اذْبَحُوا ذَبَائِحَ الْبِرِّ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى الرَّبِّ.

6كَثِيرُونَ يَقُولُونَ: «مَنْ يُرِينَا خَيْراً؟» ارْفَعْ عَلَيْنَا نُورَ وَجْهِكَ يَا رَبُّ. 7جَعَلْتَ سُرُوراً فِي قَلْبِي أَعْظَمَ مِنْ سُرُورِهِمْ إِذْ كَثُرَتْ حِنْطَتُهُمْ وَخَمْرُهُمْ. 8بِسَلاَمَةٍ أَضْطَجِعُ بَلْ أَيْضاً أَنَامُ، لأَنَّكَ أَنْتَ يَا رَبُّ مُنْفَرِداً فِي طُمَأْنِينَةٍ تُسَكِّنُنِي.

من يُرينا خيراً؟

رنَّم داود المزمورين 3، 4 صباح ومساء يوم حاول أبشالوم القيام بانقلاب فاشل ضده (راجع مقدمة مز 3). مزمور 3 مزمور صباحي، قال فيه: «أنا اضطجعت ونمت. استيقظت لأن الرب يعضدني». ثم في نهاية اليوم كتب مزمور 4 كمزمور مسائي، ختمه بقوله: «بسلامةٍ اضطجع بل أيضاً أنام، لأنك أنت يا رب منفرداً في طمأنينة تسكنني».

ويشرح مزمور 4 عمق العلاقة الشخصية بين المؤمن والرب، وهذا هو الإيمان الحقيقي. لقد تعوَّد داود أن يتـــذكر مراحم الرب السابقة، وعلى أساسها يطلب معونة جديدة. وهو هنا يشارك صموئيل في نصب «أحجار المعونة» والقول: «إلى هنا أعاننا الرب» (1صم 7: 12) واثقاً في الرب أنه أبوه وصديقه وحبيبه، يشعر معه ويتجاوب معه ويُميل أذنـــه إليه عندما يدعوه، فيقدر أن يواجه الناس بشجاعة، لأنه يحيا حياة الأُنس الدائم بالله.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – المرنم يخاطب الله (آية 1)

ثانياً – المرنم يخاطب أعداءه (آيات 2–5)

ثالثاً – المرنم يتساءل: أين نجد الخير؟ (آيات 6–8)

أولاً ـ المرنم يخاطب الله

(آية 1)

«عند دعائي استجب لي يا إله بري. في الضيق رحَّبت لي. تراءف عليّ واسمع صلاتي» (آية 1). كان موقف داود صعباً للغاية. ابنه انقلب عليه وحاول أن يأخذ المُلك منه! ولم يكن للموقف علاج سوى الصلاة وطلب الإنصاف. عندما تواجهنا مشكلة لنبدأ حلّها بأن نخاطب الله عنها. قبل أن تذهب إلى الطبيب أو تقصد المحامي أو تستشير الصديق، اقصد باب الرب، فهذه هي البداية الصحيحة. الصلاة هي الملجأ الآمن لشعب الله في كل وقت لأن «الرب قريب لكل الذين يدعونه.. بالحق» (مز 145: 18) يقول: «قبلما يدعون أنا أُجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع» (إش 65: 24) فنقول: «في ضيقي دعوتُ الرب وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي وصراخي قدامه دخل أذنيه» (مز 18: 6).

ويطلق داود على الرب ثلاث صفات:

1 - إلـه البر: «استجب لي يا إله برّي». والبر هو العدالة، والاستقامة، والموقف السليم مع الله. والله هو إله البر لأنه يعطي الذين يلوذون بحمايته وكفارته وغفرانه براً. الرب برّ المؤمن لأنه يبرره فتظهر براءته، ويضعه في موقف سليم لا يخزى فيه من الله، ولا من نفسه، ولا من الآخرين.

الله يمنح البر، ويضمن استمرار المؤمن فيه، لأنه بعمل الروح القدس يقدّس المبرَّر، ويطهِّره من خطاياه.

والله هو نموذج البر والعدالة والاستقامة والموقف السليم. هو القدوة والمثال، حتى أننا نريد أن نفعل ما يفعل. لقد ترك المسيح لنا مثالاً لكي نتّبع خطواته (1بط 2: 21).

والله قاضٍ بالبر، لأنه الإله البار العادل. لا يظلم أحداً ولا يشاء أن يهلك أحد. وقد دبّر تبريراً كريماً يكفّر عنا ذنوبنا. قال شخصٌ يظن نفسه صالحاً: «إني ألفُّ نفسي في رداء فضائلي» فجاوبه شخص حكيم يعرف كلمة الله: «رداء فضائلنا ثوب مهلهل لأن فضائلنا مختلطة بالشر. لذلك ألفُّ نفسي برداء بر المسيح. ألجأ إليه خاطئاً، عرياناً، تائباً، أطلب رحمته وستره وغفرانه».. «فإذ قد تبرَّرنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو 5: 1). «وليس لي بري الذي من الناموس، بل (البر) الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان» (في 3: 9). فعندما نضع ثقتنا في الرب يسترنا برداء برِّه.

هل تعتقد أنك تستطيع أن تستر نفسك أمام الله بما تعمل من صلاح، وبما تؤدي من فضائل؟ إذاً يجب أن تدرك أن أعمال برك كلها بلا فائدة. هذه نقطة البداية. لم يكن ممكناً لداود أن يتعامل مع الله لولا أن رآه إله البر الذي يبرره ويستره.

2 - **إله الرحب:** «في الضيق رَحَّبت لي». ضيَّق الأعداء عليه ففتح الله أمامه سُبل السلام والخير. كم كان داود رائعاً قوي الذاكرة! الكارثة التي ألمَّت به من داخل بيته على غير انتظار منه لم تطمس ذاكرته فينسى فضل الله عليه. ليعطنا الله الذاكرة التي لا تنسى حسناته، والمنطق السليم الذي يجعلنا ندرك أنه ولو سمح أن نُجرَّب فهو يقف معنا في وسطها لأن وعده صادق: «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت 28: 20). «لا أهملك ولا أتركك» (عب 13: 5). «عيني عليك» (مز 32: 8). إن أعظم البركات تأتينا ونحن نعبر وادي الدموع، فعندما يضغط علينا العدو، نتطلع إلى الرب فيرحب لنا.

3 - إلـه الرأفة: «تراءف عليَّ واسمع صلاتي». لم يلجأ إلى عدالة قضيته، بل إلى رحمة الله. هل أنت في ضيق، وهل يفتري عليك الناس؟ هل أنت في مأزق من أسرتك، أو المجتمع المحيط بك؟ الجأ أولاً إلى إله البر، وإله الرحـــب، وإله الرأفة، فإنه في الضيق يرحِّب لك، ويرحمك.

بعد أن كلم داود ربَّه في الآية الأولى، استطاع أن يكلم أعداءه في الآيات التالية، فإن الذي يخاطب ربه لا يرتعـــب أمام أعدائه، والشفاه التي طهَّرتها الصلاة تكلم الأعداء بمجاهرة وبغير خجل. سنكلّم أعداءنا بشجاعة لو أننـــا كلَّمنـــا الله أولاً.

ثانياً ـ المرنم يخاطب أعداءه

(آيات 2-5)

بعد أن صلى داود إلى إلهه، وجَّه نصيحتين إلى أعدائه، بمن فيهم أبشالوم ابنه:

1 - مقاومتكم عديمة الفائدة: «يا بني البشر حتى متى يكون مجدي عاراً؟ حتى متى تحبون الباطـــل وتبتغـــون الكذب؟» (آية 2). ونداؤه لهم «يا بني البشر» معناه أنهم إخوته من آدم، وجميعهم مخلوقون من التـــراب. إنهـــم بشـــر محدودون ضعفاء، ولو أنهم أيضاً مخلوقون على صورة الله في البر وقداسة الحق. فهم عشيرته وهو واحد منهم، ولـــو أن الله أفرزه لنفسه ودعاه لخدمته. وقبل هو دعوة الله فخصَّص نفسه لله، وهذا مجدٌ له. كما أنه يعلم أنه سيدخل مجـــده الأبدي بعد أن يكمل خدمته بمشورة الله (أع 13: 36).

كان داود يتساءل: حتى متى يهتزَّ مركزي أمامكم؟ حتى متى ترفضونني هذا الرفض المهين؟ حتى متى تضـــعون المجد الذي منحه الله لي في التراب؟

قال: «أما أنت يا رب فترسٌ لي. مجدي، ورافع رأسي» (مز 3: 3) وهنا يقول: «حتى متى يكون مجدي عـــاراً؟» أي: حتى متى يكون «الله» مجدي محل تعييري؟

قال: «كثيرون يقولون لنفسي: ليس له خلاص بإلهه» (مز 3: 2) وكأنه يقول: أنا واثق أن إلهي ينقذني ويقف إلـــى جواري. وهنا يقول: «يا بني البشر، حتى متى تحبون الباطل وتبتغون الكذب؟» لقد افتروا عليـــه، ولكـــنهم ســـيدركون سريعاً أنه لا فائدة من مقاومتهم له.. ويقدم المرنم سببين لعدم فائدة مقاومتهم له:

(أ) **الرب يميّز تقيَّه:** «فاعلموا أن الرب قد ميَّز تقيَّه» (آية 3أ). لا شك أن أعداءه لو سمعوا كلماتـــه هـــذه لسخروا منه، وقالوا: هل تعتبر نفسك تقيَّه؟ كيف ميّزك وأنت تهرب من أمام ابنك؟ لقد ضاعت المملكة منك. أنت تقول ما لا يسنده الواقع الحاضر المنظور! لكن داود الممتلئ بالإيمان والرجاء رأى ما لم يرَه أعداؤه. لقد اختاره الله وجعلـــه تقيَّه ومن خاصته، وميَّزته النعمة عندما أخذته من وراء الغنم ونصّبته ملكاً على شعب الله، وهذه حقيقـــة ثابتـــة لأنهـــا مؤسسة على صخر التمييز والاختيار الإلهيين!

(ب) **الرب يسمع تقيَّه:** «الرب يسمع عندما أدعوه» (آية 3ب). ما أعظم مكانة المؤمن فـــي نظـــر الله. «الرب قد اختار يعقوب لذاته، وإسرائيل لخاصّته». (مز 135: 4). ويقول الرب: «أنا صانع خاصَّةً» (مـــلا 3: 17).

ويقول المسيح عن كنيسته إنها «جنّةٌ مغلقة» مخصَّصة له وحده (نش 4: 12) ما أعظم مكانة داود، ومكانة كل من يحب الله في عيني الله!

2 ـ دعوة الأعداء للتوبة: (آيتا 4، 5). نسي تعبه وفكر في خير أعدائه فدعاهم للتوبة قائلاً:

(أ) **خافوا الله:** «ارتعدوا ولا تخطئوا» (آية 4أ). وكأنه يقول: أرجوكم أن تخافوا مما تفعلون. تهيّبوا. لا تتسرّعوا. دعاهم ليقفوا في خوف من نتائج ما يفعلون، ليتمكنوا من إصلاح الخطأ قبل فوات الفرصة. إنه ينصحهم: خطِّطوا قبل أن تنفّذوا. أثناء تخطيطكم لا تنسوا أن الرب قد ميّز تقيه، ويسمع عندما أدعوه. صحيحٌ إن رأس الحكمة هي مخافة الرب، ولا بد أن كل إنسان سيقدم لله حساباً عما فعل. فلنقف أمامه موقف المرتعد التائب.

(ب) **فكروا في موقفكم:** «تكلموا في قلوبكم على مضاجعكم واسكتوا» (آية 4ب). دعا كل واحد ليجري حواراً داخلياً بينه وبين نفسه ليسألها: هل ما أفعله صواب؟ أحياناً نجد أنفسنا منساقين مع الجمهور، نفعل ما يفعلون بدون تفكير شخصي متأنٍّ. وداود يريد من أعدائه أن يفكروا في هدوء. بعيداً عن الضجيج ليعيدوا التفكير ويقيّموا مواقفهم ويتوبوا. إن ساعات الليل الهادئة هي أفضل وقت لفحص النفس، عندما يخلو الإنسان لنفسه وضميره وربِّه.

(ج) **تعبَّدوا لله:** «اذبحوا ذبائح البر» (آية 5أ). بدل أن تذبحوني أنا اذبحوا للرب ذبيحة تجعلكم أبراراً أمامه. قدّموا له ذبيحة مقبولة عنده. أَصلِحوا أموركم مع الله، فتتحقق لكم بركة موسى لسبطي زبولون ويساكر: «إلى الجبل يدعوان القبائل. هناك يذبحان ذبائح البر» (تث 33: 19).

(د) «**توكلوا على الرب**» (آية 5ب). والتوكل هو السلوك المتناسب مع المعرفة، والتصرف المبني على الثقة بالله. فعندما يقدمون لله ذبائح البر يصبحون أبراراً في عينيه، لأن الذبيحة توجِد سلاماً بينهم وبين الله، وينتج عن ذلك سلام يغمر النفس. وقتها يتوكلون على الله بثقة في غفرانه.

وندرك اليوم أن الذبائح التي طالبت بها شريعة موسى كانت ترمز للمسيح «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو 1: 29، 36). فبدون ذبيحة كفارية لا نجاة من أجرة الخطية التي هي موت، وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عب 9: 22). لقد جاء المسيح مخلّصنا وقدم نفسه فداءً عنا، فأوجد لنا السلام مع الله، الذي يمنحنا السلام مع نفوسنا ومع المحيطين بنا.

ثالثاً ـ المرنم يتساءل: أين نجد الخير؟

(آيات 6-8)

في الجزء الأخير من مزمورنا يجاوب داود على سؤال يسأله كثيرون: «من يرينا خيراً؟». ولا بد أن أعداءه سيسألونه لو أنهم قبلوا نداءه لهم بالتوبة.

ويقدم إجابتين لهذا السؤال الأساسي والمهم:

1 - ظنَّ أبشالوم أنه يجد الخير عندما يخطف المملكة من أبيه داود، وظن الذين انضموا إليه في انقلابه الفاشل أنهم سيحصلون على مراكز جديدة في الدولة، فيصبحون أصحاب مكانة أفضل. فأين نجد الخير؟ فنجد في غير المؤمن ثلاثة أمور:

(أ) **يسأل** «من يُرينا؟» لأنه يجهل أو يتجاهل أن الله هو مصدر الخير كله. وما أغناه عن السؤال، فالإجابة معروفة: إن الله هو المصدر الوحيد لكل خير. «بركة الرب هي تُغني، ولا يزيد (الرب) معها تعباً» (أم 10: 22).

(ب) **يريد** أن «يرى» بعيني جسده، فلا يتمتَّع ببركة: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو 20: 29).

(ج) **يظن** أن خيره في ما يمتلكه من ماديات «حنطة» وهي نتاج الحقل «وخمر» وهو نتاج الكروم.

2 - أما المؤمن فيعرف أن:

(أ) **الرب نفسه هو الخير**: كما أنه هو مصدر الخير، فلا يفتش على الخير ويسأل أين يجده، بل يقول: «ارفع علينا نور وجهك يا رب» بمعنى: ارضَ علينا يا رب وابتسم لنا. ورفع نور وجه الله علينا يعني التفاته إلينا وعنايته بنا. فنحن لا نحتاج إلا إلى رضى الرب علينا. قال المسيح: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تُزاد لكم» (مت 6: 33). وكل من يرفع الرب نور وجهه عليه، يرفع هو عينيه إلى أعلى، لأن نبع حياته من فوق، ومعه لا يحتاج إلى شيء.

(ب) **خير الرب أعظم خير**: «جعلتَ سروراً في قلبي أعظم من سرورهم إذ كثُرت حنطتهم وخمرهم» (آية 7) لأن أصحاب العلاقة السليمة مع الله يعلمون أنه وحده يشبعهم بشخصه كما يشبعهم بعطاياه، ويعطيهم كل ما يحتاجون إليه، ولا يحرمهم من شيء. إن سيادة المسيح على الحياة أفضل من كل ممتلكات العالم، فالحنطة والخمر ثمار الأرض، أما نور وجه الله فهو ثمار السماء. ولما يبتسم الرب لك يضيء لك عالم الأرض وعالم الأبد.

(ج) **السلام الداخلي هو الخير الأسمى**: السلام الداخلي يبقى قوياً مهما كانت المتاعب الخارجية فقال: «بسلامة أضطجع» (آية 8أ) لأنه ليس قلقاً ولا خائفاً «بل أيضاً أنام، لأنك أنت يا رب منفرداً في طمأنينة تسكّنني» (آية 8ب). ضاعت ثقته في أبشالوم ابنه الذي خانه، وضاعت في كثيرين من رجال حاشيته الذي تركوه لينضموا لأبشالوم، وبقيت ثقته في الرب وحده. كان الرب منفرداً يحرسه، ووحده يحفظه. قال المسيح ابن داود لتلاميذه: «تتركونني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الآب معي» (يو 16: 32).

صار داود كطفل يسند رأسه على صدر أمه ويغط في نوم عميق، لأنه يدرك أن الحب كله يحيط به. فليتنا نصبح مثله، حتى لو كنا منفردين، فإننا مع الله جماعة عظيمة، لأن الأقلية إلى جوار الرب هم الأغلبية، ورحمة الله أفضل من الحياة.

اَلْمَزْمُورُ الْخَامِسُ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ عَلَى ذَوَاتِ النَّفْخِ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1اَلْكَلِمَاتِي أَصْغِ يَا رَبُّ. تَأَمَّلْ صُرَاخِي. 2اسْتَمِعْ لِصَوْتِ دُعَائِي يَا مَلِكِي وَإِلَهِي، لأَنِّي إِلَيْكَ أُصَلِّي. 3يَا رَبُّ، بِالْغَدَاةِ تَسْمَعُ صَوْتِي. بِالْغَدَاةِ أُوَجِّهُ صَلاَتِي نَحْوَكَ، وَأَنْتَظِرُ.

4لأَنَّكَ أَنْتَ لَسْتَ إِلَهاً يُسَرُّ بِالشَّرِّ، لاَ يُسَاكِنُكَ الشِّرِّيرُ. 5لاَ يَقِفُ الْمُفْتَخِرُونَ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ. أَبْغَضْتَ كُلَّ فَاعِلِي الإِثْمِ. 6تُهْلِكُ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْكَذِبِ. رَجُلُ الدِّمَاءِ وَالْغِشِّ يَكْرَهُهُ الرَّبُّ. 7أَمَّا أَنَا فَبِكَثْرَةِ رَحْمَتِكَ أَدْخُلُ بَيْتَكَ. أَسْجُدُ فِي هَيْكَلِ قُدْسِكَ بِخَوْفِكَ.

8يَا رَبُّ، اهْدِنِي إِلَى بِرِّكَ بِسَبَبِ أَعْدَائِي. سَهِّلْ قُدَّامِي طَرِيقَكَ. 9لأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَفْوَاهِهِمْ صِدْقٌ. جَوْفُهُمْ هُوَّةٌ. حَلْقُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ. أَلْسِنَتُهُمْ صَقَلُوهَا. 10دِنْهُمْ يَا اللهُ. لِيَسْقُطُوا مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ بِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ. طَوِّحْ بِهِمْ لأَنَّهُمْ تَمَرَّدُوا عَلَيْكَ.

11وَيَفْرَحُ جَمِيعُ الْمُتَّكِلِينَ عَلَيْكَ. إِلَى الأَبَدِ يَهْتِفُونَ وَتُظَلِّلُهُمْ. وَيَبْتَهِجُ بِكَ مُحِبُّو اسْمِكَ. 12لأَنَّكَ أَنْتَ تُبَارِكُ الصِّدِّيقَ يَا رَبُّ. كَأَنَّهُ بِتُرْسٍ تُحِيطُهُ بِالرِّضَا.

تحيطه بالرضا

هذا مزمور صباحي، رنَّمه داود بعد ليلة قضاها في خطر، قال بعدها: «يا رب، بالغداة (في الصباح) تسمع صوتي. بالغداة أوجِّه صلاتي نحوك وأنتظر» (آية 3). وهو كمزموري 3، 4 اللذين رنَّمهما في وقتٍ تعرَّض فيه للأخطار من أعداءٍ منافقين. وربما كتب داود هذا المزمور أثناء عمله في بلاط الملك شاول، أو في وقت ثورة ابنه أبشالوم الفاشلة ضده.

يبدأ المزمور بصرخة دعاء إلى الرب، هي صلاة إيمان من قلب يدرك أن الله ترسٌ للمحتمين به، ولا يرضى بشرّ الأشرار، ويجازي الذين يطلبونه، وفي رحمته يقبل مثول المرنّم في محضره المقدس. ويتخلل المزمور إحساسٌ عميق بمدى انتشار الشر والبُعد عن الله، الأمر الذي يعذِّب نفس البار وهو يرى الأفعال الأثيمة. ويطلب المرنم من الله أن يحفظه من غدر أعدائه، وأن يعاقبهم، كبرهان على عدالته السماوية. ووسط ضباب الشر والضيق يشرق الله بنوره على المؤمن، فينشئ الضيق صبراً، والصبر تعزية، والتعزية رجاءً وتشجيعاً للمؤمنين المضطهَدين (رو 5: 4).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – صلاة (آيات 1–3)

ثانياً – الرب يعاقب الأشرار (آيات 4–6)

أولاً ـ صلاة
(آيات 1-3)

1 - طرق الصلاة: «لكلماتي أصغ يا رب». ثم يقول: «تأمل صراخي» (آية 1). ثم يقول: «استمِع لصوت دعائي» (آية 2). فهو يكلم الرب، ويصرخ إليه، ويدعوه. فالرب ملجأ المؤمن، وهو العادل المنصِف، وهو الرجاء الأكيد لأنه يسمع ويستجيب. إنه قوة الضعيف، وسلام الخائف، وعزاء المتضايق. ونجد أنفسنا مع المرنم محتاجين إلى الكلام مع الرب، والصراخ إليه والدعاء له:

(أ) **نكلّم الرب:** «لكلماتي أَصغ يا رب» (آية 1أ). إنه يكلمنا في الكتاب المقدس، وفي الوعظ. ونحن نجاوبه بالصلاة. كأنَّ داود يقول: أنا أصغيتُ لكلماتك فشجعتني، وملأت قلبي بالسلام والتعزية. والآن أدعوك لتسمع كلماتي التي تعبّر عن شكري وأشواق قلبي واحتياجاتي. كم أحبك يا رب. أريد أن ينشأ حوارٌ مستمر بيني وبينك، لأنه ينبغي أن أصلي في كل حين ولا أملّ.

(ب) **نصرخ للرب:** «تأمل صراخي» (آية 1ب). وكأن داود يقول: أنا في ضيق، وأنت أبي ومنقذي وصديقي. من الضيق أخرِج نفسي. إن كان ما أطلبه صالحاً فأعطه لي. وإن كان ناقصاً أكمِله. وإن كان رديئاً ارفُضه. إني كطفلٍ لا يملك قدرة التعبير عن نفسه بالكلام، فيصرخ. وأنا طفل أمام المشكلة، فأدعو أبي. أجِبني في الوقت المعيَّن وامسح دموعي.

(ج) **ندعو الرب:** «استمع لصوت دعائي» (آية 2أ). كأن داود يقول: أدعوك وأطلب منك، لا تطفُّلاً مني، لكن لأنك قلت: اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم. فأنا أناديك وأدعوك وأقرع بابك يا سيدي. استمع لصوت دعائي.

يحدّث المؤمن الرب دائماً وفي كل الظروف، ويطلب منه أن «يصغي» إليه، بمعنى «يُعِيره اهتمامه». وهنا صرخة النفس المرة المتألمة، التي تطلب من الرب أن يتأملها، أي يُدخل صراخها في اعتباره، ويفكر فيها لأنها متضايقة. وهنا دعاء الاحتياج. والمحتاج يطالب الرب بالاستماع له، فالرب يعرف صوته ويميّزه، كما يعرف هو صوت أبيه السماوي ويميّزه.

2 - سامع الصلاة: يدعوه «يا ملكي وإلهي».

(أ) **يدعو ملكه:** كان داود ملكاً، يحكم شعبه ويقضي له، لكنه يعلم أن الله ملك الملوك وحاكمهم وقاضيهم، فيقدم ولاءه الكامل للملك الأعظم، إله الكون، صاحب السلطان في السماء وعلى الأرض.

(ب) **ويدعو إلهه:** القادر على كل شيء، السرمدي، صاحب العهود الصادقة والأمينة.

3 - موعد الصلاة: «يا رب بالغداة (في الصباح) تسمع صوتي. بالغداة أوجّه صلاتي (بمعنى أعرض طلبي وأرفع رغباتي) نحوك، وأنتظر» (آية 3).

في الصباح، وفي مطلع كل يوم، يبدأ المرنم يومه مع الله، لأنه لا يستطيع أن يواجه العالم بدون القوة التي يستمدها من إلهه، لذلك يوجّه صلاته نحوه وينتظر. كان داود يرمي سهاماً بقوسه. وفي هذه الآية يُشبِّه نفسه برامي السهم الذي يضع سهمه في قوسه ويشدُّه ثم يطلقه نحو الهدف. ويرفع عينيه إلى حيث ينطلق السهم ليحقق القصد منه. وكأنه يقول: يا رب، صلاتي تندفع نحوك كسهم، وأنا أرفع عينيَّ إليها واثقاً أنها ستصل إليك. ولا بد أنك تستجيب، لذلك أنتظر البركة والاستجابة. إنك موجود وحي وسامع وفعّال، وستعطيني احتياجي.

«أما منتظرو الرب فيجدّدون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور. يركضون ولا يتعبون. يمشون ولا يُعيون» (إش 40: 31). أحياناً نواجه مسؤولية عاجلة تحتاج لسرعة الطيران للقيام بها. وأحياناً تزيد مسؤوليات اليوم عن عدد ساعاته فنركض لنؤدّيها. وأحياناً تكفينا سرعة المشي لأداء عمل اليوم. وفي هذه جميعها ننتظر الرب الذي يعطينا القوة الكافية للوفاء بالتزاماتنا. فنقول: «انتظاراً انتظرت الرب، فمال إليّ وسمع صراخي» (مز 40: 1).

ثانياً ـ الرب يعاقب الأشرار
(آيات 4-6)

1 ـ أوصاف الشرير: «الشرير» هو الذي يعبر الخط الذي رسمه الله لنا، ويتخطى الأوامر الإلهية، ويدخل دائرة الممنوع. ويقدم داود في هذه الآيات (4–6) مجموعة أوصاف للشرير:

(أ) «المفتخر أمام عينيك»: غريب أن التراب المخلوق يتكبَّر في محضر الله العظيم الخالق. والله «يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (يع 4: 6).

(ب) «فاعل إثم»: والإثم هو العَوَج، والذي يرتكبه يحب الطريق الأعوج.

(ج) «متكلّم بالكذب»: فهو من أبٍ هو إبليس، وإبليس هو الكذاب وأبو الكذاب (يو 8: 44).

(د) «رجل الدماء»: لأنه قتل حياةً أو سُمعة.

(هـ) «رجل الغش»: لأنه لا يقول الحق.

(و) الله يكرهه: بمعنى يكره أفعاله، فالرب يكره الشر لكنه يحب الشرير.

2 ـ أوصاف الله: «لأنك لست إلهاً يُسَرُّ بالشر». فالله صالح وإلى الأبد رحمته. ليس هو قاسياً شريراً مخيفاً كآلهة الوثنيين، ولا منعزلاً بعيداً عنا، لكنه قريب منا. يقول عنه الرسول يعقوب: «الله غيرمجرَّب بالشرور، ولا يجرِّب أحداً (بالشرور)» (يع 1: 13) لو أن شريراً ذهب إلى السماء ما استطاع أن يجد راحته هناك، لأنه يختلف عن كل الموجودين، ولا يستريح إلى جوّ المكان.

ونحن نتفق تماماً مع داود أن الله يبغض الخطية، ولا يسّر بالشر، لكننا في نور العهد الجديد ندرك أن الله يحب الخاطئ، ويريده أن يتوب. كان اليهود يقولون: «إن السماء تفرح بخاطئ يهلك لتستريح الأرض من شره». لكن المسيح يقول: «يكون فرحٌ في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة» (لو 15: 7). وهذا يعلّمنا أن الله يحب الخاطئ ليتوّبه، ويحب البعيد ليقرّبه، ويحب الضعيف ليقوّيه، ويحب النجس ليطهّره.

3 ـ عقوبة الشرير:

(أ) «لا يساكنك الشرير» (آية 4). سيظل الشرير بعيداً عن محضر الله وعن دائرة رضاه إلى أن يتوب. لا تلاقي بين شر الشرير وقداسة الله. لا يطيق الشرير أن يساكن الرب، فهو محروم من التمتع بالأُنس به، وهذه أكبر عقوبة له. وسيأتي اليوم الذي فيه يهلك فاعلو الإثم وجميع الكذبة.

(ب) «لا يقف المفتخرون أمام عينيك» (آية 5) لأنهم لا يجرؤون، ولأن الله لا يسمح لهم. قال المرنم مخاطباً الرب: «الأعين المرتفعة تضعها» (مز 18: 27). وقال الله: «مستكبر العين ومنتفخ القلب لا أحتمله» (مز 101: 5). وقال الرسول بطرس: «تسربلوا بالتواضع، لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (1بط 5: 5).

(ج) «تُهلك المتكلمين بالكذب» (آية 6) فالبحيرة المتقدة بالنار والكبريت هي نصيب إبليس وكل من يسيرون معه.

فلنصلّ: «قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدّد في داخلي» (مز 51: 10). أعطني نقاوة القلب لأستطيع أن أساكنك وأتواجد في محضرك وأقول: تشتاق نفسي إلى الرب.

ثالثاً ـ الرب يبارك المؤمنين

(آيات 7-12)

في هذه الآيات الست يتحدث داود عن موقف المؤمنين من الرب وموقف الرب من المؤمنين، وهذا يشغل النصف الثاني من المزمور. فيقول داود: «أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك». وكلمة «أما» تعني أنه يوجد اختلاف بين المرنم والأشرار، لا لأنه أفضل منهم، فإننا كلنا كغنمٍ ضللنا، لكن «بكثرة رحمتك» لأن رحمة الله الغنيَّة أدركت المرنم ورضيت عليه، لأنه رجع إلى الله تائباً.

ذكر داود في آيات 4–6 شرور الأشرار، وكأنه يقول: «الله الذي هو غنيّ في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبّنا بها، ونحن أمواتٌ بالخطايا أحيانا مع المسيح» (أف 2: 4، 5). فقد مدَّ الرب يد الحب للشرير لينتشله من بين الأشرار ولينقذه من العقاب، وتداركته الرحمة الإلهية وفتحت عينيه للخلاص. وما كان ليدرك هذا الخلاص والحياة الجديدة لولا أن الرحمة أدركته.

ويقدم لنا النبي داود في الآيات الست الأخيرة فكرتين رئيسيتين:

1 ـ موقف المؤمن من الرب: (آيات 7–10)

(أ) موقف العبادة: «أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك. أسجد في هيكل قدسك بخوفك» (آية 7). لن يقف بعيداً، بل سيدخل بيت أبيه مرتمياً في أحضان محبته، معتمداً على الرحمة الكثيرة. كان داود طريداً، بعيداً عن مكان العبادة، مشتاقاً لبيت الرب. لم يكن الهيكل قد بُني بعد، غير أن قلبه كان يتَّجه نحو مكان العبادة، أينما كان، وهو يعلم أنه لا يقدر أن يفعل ذلك إلا إن تداركه الرب برحمته، وأرجعه إلى مكانته. وكان واثقاً أن الله، في مراحمه، سيحقق له أشواق قلبه العابد. وعندما يدخل بيت الله يسجد في الهيكل المقدس بخوف المهابة والاحترام. وخوف الرب رأس الحكمة، وهو التقوى العملية.

ونحن اليوم نتَّجه بقلوبنا إلى السماء بيت الرب، فليس السجود واجباً في جبل معين أو مكان محدد، فقد قال المسيح للمرأة السامرية: «لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون للآب.. الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو 4: 21، 24). وقد أعطانا المسيح ثقة بالدخول إلى الأقداس بدمه الكريم، فلنتقدَّم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة، ونجد نعمةً عوناً في حينه (عب 10: 19 و4: 16).

(ب) موقف طلب الهداية: «يا رب، اهدني إلى برّك بسبب أعدائي. سهِّل أمامي طريقك» (آيــة 8). إن كان داود قد كتب هذا المزمور وقت هروبه أمام أبشالوم، فيكون معنى طلبه: يا رب، اجعلني ملكاً عادلاً حتى لا يجــد أعدائي فيّ ما يشتكون به عليّ، واجعل طريقك سهلاً أمامي، مهما كانت التكلفة والتضحية. «ادخلوا من الباب الضــيق، لأنه واسع الباب ورحبٌ الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك. وكثيرون هم الذين يدخلون منه! ما أضــيق البــاب وأكــرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه» (مت 7: 13، 14). وكأن الملك داود يطلب الهداية إلى الباب الضيق، ويطلب المعونة الإلهية ليجد الطريق الكرب سهلاً.

ونحن نحتاج إلى هداية الرب اليومية كأطفال يمسكون بيد أبيهم، فتصبح طريق حياتنا مأمونة ومريحة، لأننا نســلك في برِّه هو، ونسير في طريقه، التي هي «الطريق المقدسة.. مَن سلك في الطريق حتى الجهال لا يضــل» (إش 35: 8).

(ج) موقف طلب الدينونة للخطاة: «دِنْهم يا الله.. طوِّحْ بهم لأنهم تمرّدوا عليك» (آيتا 9، 10). يُدان الخطاة الذين يصفهم بأنهم الكاذبون، الذين يلتهمون سمعة الآخرين، أصحاب الحلق المفتوح الذي يخرج رائحــة عفنــة كالقبور، وألسنتهم مصقولة كالسيوف! قال البعض إن المرنم يطالب بالنقمة من الأشرار. فإن كان هذا هو المعنى، فــإن المرنم يطبّق شريعة موسى: «عينٌ بعين وسن بسن» (خر 21: 24). وهذا بالطبع يختلف عن روح المسيح الذي يعلِّمنا أن نطلب الغفران للمسيئين إلينا.. وقال البعض إن المرنم يعلن العقوبة التي لا بد ستجيء على الخاطئ بسبب عدالة الله. وفي هذه الحالة يكون المرنم قد أعلن النتائج قبل حدوثها.

2 - موقف الرب من المؤمن:

(أ) الرب يُفرِّح المؤمن: «يفرح جميع المتكلين عليه. إلى الأبد يهتفون لأنك تظلّلهم، ويبتهج بك محبّــو اسمك» (آية 11). تمتلئ حياة المؤمن بالبهجة الروحية كنتيجة طبيعية لموقفه من الرب، فيقول إنه موضــوع فرحــه، يفرح به أكثر مما يفرح بكل ما في العالم. «جعلتَ سروراً في قلبي أعظم من سرورهم، إذ كثُرت حنطتهم وخمــرهم. بسلامةٍ أضطجع بل أيضاً أنام، لأنك أنت يا رب منفرداً في طمأنينة تسكّنني» (مز 4: 7، 8). يبتهج من نبــع البهجــة الفائض، بعد أن استراح قلبه في الله، وشبعت نفسه من الغذاء الروحي اليومي.

ويقدم المرنم في هذه الآية صفتين للمؤمنين الفرحين بالرب:

* إنهم «متكلون عليك». لا يتكلون على بّرهم، بل على رحمة الله وفدائه. ولا يتكلون على ذكــائهم أو غنــاهم أو علاقاتهم الاجتماعية، لكن على العطايا الإلهية. إنهم يثقون ويتصرفون بناءً على ثقتهم، فيعتمدون علــى الله ويســلّمون أنفسهم لرعايته.

* وهم «محبّو اسمه» الذي يستحق الحب. قائلين: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (1يو 4: 19). حبنا له صــدىً لحبه. دعونا نقُل له مع الرسول بطرس: «يا رب، أنت تعلم أني أحبك» (يو 21: 15).

(ب) الرب يبارك المؤمن: «لأنك أنت تبارك الصدِّيق يا رب» (آية 12). عيَّن الـرب شـعبه ورثـةً للبركة، فيشبعهم بالخير الإلهي الأسمى. والرب يبارك المؤمن بأن يمنحه نعمة بلا حدود وبمجد لا يُنطَق به. بارك الرب إبراهيم وقال له: «أجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظّم اسمك، وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه، وتتبـارك فيك جميع قبائل الأرض» (تك 12: 2، 3). وبارك المسيح تلاميذه قبل صعوده، ومنحهم بركة الروح القدس (لـو 24: 50، 51). ويصف المرنم المؤمن الذي يباركه الرب أنه «صدِّيق». والصدِّيق هو البار المستقيم، الذي أنعـم الله عليـه ببرّه.

(ج) الرب يحمي المؤمن: «كأنه بترس تحيطه بالرضا» (آية 12). يحيطه بترس الإيمان الذي به يطفئ جميع سهام الشرير الملتهبة. فما الذي يؤذينا إن كان الله يحيطنا بمحبته؟ إن الله يجرِّد العدو من سلاحه، ويبطل أفكاره، ثم يسحقه تحت أرجلنا سريعاً.

والترس قطعة من الخشب يغطونها بالجلد، يواجه به الجندي السهام الموجّهة ضده، فينغرس سنّ السهم في الخشـبة المغطاة بالجلد. والترس الذي يحمينا هو رضا الله علينا، لأننا في المسيح، ولأننا أعضاء جسده، منتمون إليـه، ثـابتون فيه. هذه الكلمات تشوّقنا لأن نكون من الصدّيقين الذين تبرّروا بتبريرات المسيح، واحتموا في كفارتـه. وهـي دعـوة موجّهة لك لتكون من رعية المسيح، الذي يفرحك ويحميـك بتـرس رضـاه، فتفـرح بـه، وإلى الأبد تهتـف لأنـه يظللك، فقد طلـب لأجلك لكيلا يفنى إيمانك (لو 22: 32).